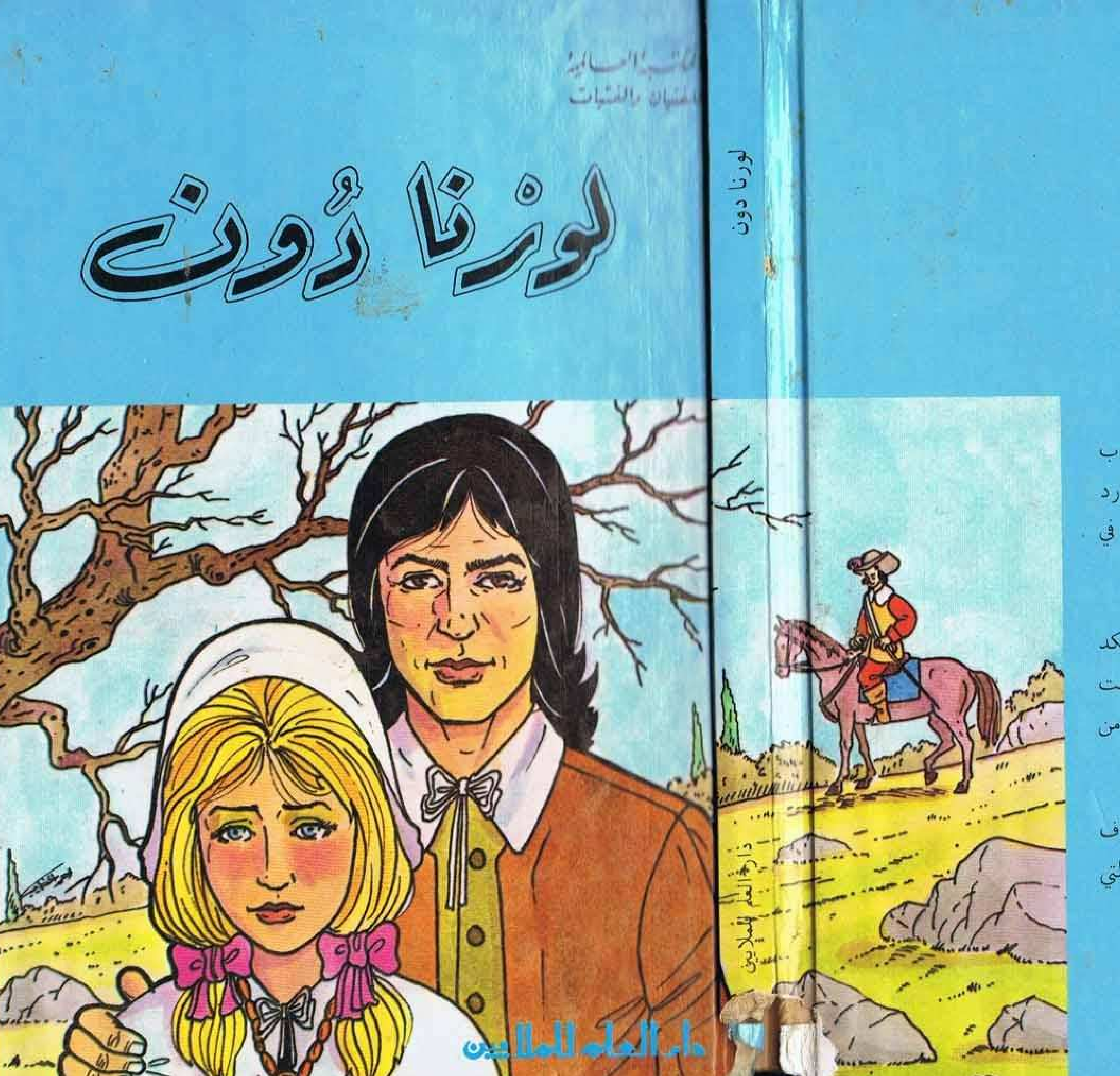


هذا الكتاب

- تُعتبر لورنا دون إحدى روائع الأدب الانكليزي الخالدة، ويُعتبر مؤلفها ريتشارد بلاكمور من أبرز وجوه هذا الأدب في القرن التاسع عشر.

- نشرت للمرة الأولى عام ١٨٦٩ ولم تكد تنقضي على نشرها بضع سنوات حتى لقيت نجاحاً منقطع النظير فأعيد طبعها أكثر من أربعين مرة في حياة المؤلف نفسه.

- ولسنا نشك في أن ناشئتنا العربية سوف تجد في قراءتها متعةً بالغة كتلك التي وجدها القراء في مختلف أقطار العالم.

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

لورنا دون



تأليف
ريتشارد بلاكمور

تعريب
فيروز قاردن البعلبكي

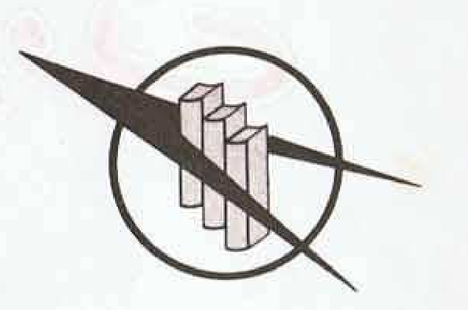
دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقياً : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى ١٩٨٢
الطبعة الثالثة
حزيران (يونيو) ١٩٨٦

كيف تركتُ المَدْرَسة

اسمي « جون ريد »، وأنا من سُكَّانِ قريةِ « أور » التي تقعُ في « بريطانيا »، وبالتحديد في منطقة « سومرست ». لقد جرتْ أحداثٌ كثيرةٌ في هذا الجزءِ من العالم في السنواتِ التي عِشتُ فيها، وسوف أروي لكم كلَّ ما أعرفه عنها في كتابي هذا.

كان أبي مزارِعاً، وقد ورِثَ مزرعتَه عن أبيه، وكان أبوه بِدَوْرِهِ قد ورثها عن أبيه، فالمزرعةُ مِلْكٌ لعائلتِنا منذ مئاتِ السنين. والتحقتُ أنا بمدرسةٍ اسمُها « مدرسة بلاندل »، وهي تقع في « تيفرتون ». ولَعَلَّ اسمي مازال محفوراً على إحدى طاولاتِ هذه المدرسةِ حتى يومكم هذا. لم أبْقَ في المدرسةِ طويلاً، لظروفٍ ستعرفونها.

تركتُ المدرسةَ في التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٦٧٣. فقد انصرف الطلابُ في الساعةِ الخامسةِ مساء. ورأينا عدداً من الجياد في

أوَّلِ الطريق، وكان برفقتها بعضُ الحرّاس. وكانت الجيادُ مُحَمَّلَةً بالبضائع. أما الحراسةُ فكانت اتقاءً لِشَرِّ « السيّــد فاغوس » المعروفِ بسطوهِ عـلى البضائعِ المنقولة. كان « السيد فاغوس » هذا ابنَ عمي، وقد طارت شُهْرَتُه لكونِه قاطعَ طريقٍ خطير.

ركضنا جميعاً باتجاه الجياد والحُرّاس، فقد كان هذا المنظرُ يروقُنـا كثيراً. وبينما كنّا نتزاحمُ وَنَتَدافَعُ في سيرِنا، ضربني أَحدُ الصّبيان واسمُه « روبين سنيل » على مَعِدَتي. وثار غضبي فَضَرَبْتُهُ على وجهِه، فما كان منه إلا أن لطمني لطمةً قويّةً أَوْقعتْني أرضاً.

– « إِنْهَضْ يا « جون ». لقد ضربكَ وعليك أن تُدافِعَ عن نفسِك. لا بُدَّ من معركة بينكما! » هكذا أخذ الصّبيان يصرُخون. وبينما هم على هذه الحال اقترب منّا أحدُ الرّجالِ ومعَهُ عددٌ من الجياد، وقال:

– « هل رأى أحدٌ منكم « جون ريد »؟ »

كـان الرّجـلُ يُدعَى « جونِ فراي »، وكان خادماً في منزلنا.

تقدّمتُ منه ببُطء وسألتُه: « لِمَ جئتَ إلى هنا يا « جون »؟ لمْ يَنْتَهِ الفصلُ الدّراسيُّ، فأمامَنا شهرٌ آخَرُ في المدرسةِ قبلَ أن نعودَ إلى البيت. »

وأشاح « جون فراي » بوجهه عني، ثم قال:

– « أعرفُ ذلـكَ... إنّ أُمَّكَ في البيتِ تطبخ... إِعْتَبِرْ أنَّ المدرسةَ قد انتهت. »

– « كيف حالُ أبي؟ لقد كان من عادتِه أن يأتيَ لِيَصْطَحِبَـني إلى البيـتِ عندَ انتهاءِ الفصل الدّراسي. »

– « إنه... إنَّه في الجانبِ الآخرِ من الهَضَبَة »، قال « جون فراي » وهو يُخفِضُ رأسَه. وعند ذلكَ عَلِمتُ أنّه لمْ يَكُنْ يقولُ لي الحقيقة.

ثم سألتُه: « أتظنُّ أنَّ عليّ أن أُقاتِلَ هذا الصبيَّ الآنَ، أم تُريدني أن أُرافِقَكَ فوراً؟ ».

– « بل عليكَ أن تُقاتِلَه »، قال « جون فراي » بلا تَرَدُّد. « سيكون أمَامَك في الحياةِ معارِكُ كثيرةٌ، فابدأْ مُنْذُ الساعة. »

كان « روبين سنيل » يكبرني حَجْماً. ولم يَكُنْ باستطاعتي أنْ أُركِّزَ انتباهي على هذه المعركةِ، إذ كُنْتُ أُفكّرُ فيما قاله « جون فراي » عن والدي. ثم ضربني « روبين سنيل » ضربةً على وجهي أَفْقدَتْني صبري، فاندفعتُ لقتاله. واستمرَّ القتالُ ثلاثَ دقائقَ، صَرَخَ بعدها أَحدُهم: « انتهى الوقت »، فاسترحنا قليلاً، ثم عُدْنا إلى جولةٍ أُخرى. وقاتلتُ في الجولةِ الثانيةِ بانتباهٍ أَكبرَ مُنتظراً أَنْ يُصيبَ التّعبُ « روبين سنيل ». وفي هذه الأثناءِ كان « جون فراي » يمشي بين المتفرجين يسألُهم عن رأيِهم في القتال.

وصرخ أحدُهم « أحسنتَ يا « جون »! »

وقال آخرون: « اقضِ عليه! ارمِه أرضاً! »

ومَرّةً أُخرى نادى المنادي « انتهى الوقت ».

في الجولة الجديدة قرّرتُ أَن أفوزَ على خَصْمي، وإلاَّ فلن أَذهبَ إلى البيت. وضحكَ « روبين » فأثارتني ضحكتُه، وأَشْعَلَتْ فيَّ غضباً لا يوصف. لقد كرهتُه لهذا الضَّحِك. ثم وجَّه نحوي ضربةً بيساره، ولكنني تلافيتُها بتحريكِ رأسي، وبعد ذلكَ ضربتُه بين عينيه بيميني. وهنا انتهت المعركة... وساعدتُ أصدقائي على حَمْلِ « روبين » إلى السرير!

الفتاةُ الجميلة

كانت رحلتُنا من « تيفرتون » إلى « أور » شاقَّةً وطويلةً، حتى إننا لم نَكُنْ نتجرَّأُ على المرورِ فوقَ بعضِ الأمكنةِ لطراوةِ الأرض.

غادَرْنا « تيفرتون » في الصباح الباكر، وقطعنا النهرين. ووصلنا إلى « دلفرتون » وهي في مُنْتَصَفِ رحلتنا. ولم يَكُنْ « جون فراي » ليخبرَني سببَ إرجاعي إلى المنزل، ولكنّه على كلِّ حالٍ لم يَكُنْ قد أخبرني بالحقيقةِ فيما يتعلَّقُ بوالدي.

تناولنا في « دلفرتون » طعامَ العشاء. وخرجتُ لأَغسِلَ يَديّ، وإذا بشابّةٍ جميلةٍ أمامي. حيَّتْني وقالت:

- « أنا « بنيتا »، خادمةُ السيِّدة... آه.. ما هذا على بَشَرَتِكَ؟ هل ضربكَ أَحدٌ فأحدثَ هذه الكدماتِ على وجهك؟ »

- « عليَّ أنْ أنطلقَ الآنَ، لأن « جون فراي » ينتظرُني. »

- « كم المسافةُ مِن هنا إلى « واتْشِتْ »؟ »

أجبتُ قائلاً: « إن المسافةَ طويلةٌ، والطريقُ شاقةٌ تماماً كالطريقِ إلى « أور »... »

- « سأذكر هذا... « أور »... أتسكنُ هناك؟ لعلّي أجيء إلى زيارتكَ في يومٍ من الأيام. » ثم مدّت يدَها نحوي، وأعطتني كأساً لأَملأَه لسيِّدتها ماءً. وملأتُ كأسَها ثم انصرفتُ إلى المنزل.

تابعتُ أنا و « جون فراي » المسير. وبعد أن قطعنا مسافةً قصيرةً مررنا بعَرَبَةٍ كبيرةٍ ذاتِ جيادٍ ستَّة، تَتَّجِهُ صُعوداً على التّلة.. ورأيتُ في العَرَبَةِ الخادمةَ التي رأيتُها عندما كُنتُ أَغسِلُ يدي، كما رأيتُ سيّدَتَها. وكان إلى جانبِ السيّدةِ فتاةٌ ذاتُ شعرٍ أسودَ رائع. رفعتُ قُبَّعتي احتراماً لهنّ. فلوّحتِ الفتاةُ لي بيدِها. ولم نَعُدْ نرى العَرَبَةَ لأننا انحرفنا

إلى طريقٍ جانبيٍّ نقصده. وكان الضبابُ كثيفاً في ذلكَ الطريقِ بحيثُ لم نَكُنْ نرى أَبعدَ مِن رؤوسِ جيادِنا.

كادَ « جون فراي » ينام. وفجأةً أفاق وقال: « أين نحنُ الآن؟ »

ولفت انتباهي شيءٌ مُتَدَلٍّ مِن شَجَرَةٍ أمامَنا. وشعرتُ بالبرودةِ تَسْري إلى أطرافي. لقد كان « الشيءُ » المتدلي رَجُلاً.

- « مَن ذاكَ المعلَّقُ في الشجرة؟ » سألتُ بشيءٍ من الرُّعب. « هل أَعدموا أحداً من جماعة « الدونز »[1] يا « جون »؟ »

- « تقول أعدموا واحداً من « الدونز »؟ » قال « جون فراي » مستغرباً. « لا تَكُنْ أَحْمَقَ. إنّ الملكَ نفسَه لا يَجرُؤ على أنْ يفعلَ شيئاً كهذا. إن

(١) « الدونز » Doones، واحِدُهم « دُون »، وهم جماعة من الناس ستتعرَّف إليهم في القصة، ومنهم « لورنا دُون ».

هذا المعلَّقَ على الشجرةِ ما هو إلا أحدُ اللصوص، واسمه « رِد جيم » على ما أظنّ. »

تابعنا سيرَنا. وأردتُ أن أعرفَ المزيدَ عن « رِد جيم » هذا فقلت:

- « من « رِد جيم » هذا يا « جون »؟ »

- « لا تتكلم، فنحن قربَ طريق « الدونز ». علينا ألاَّ نُحْدِثَ ضجَّةً كيلا ينتبهوا لنا إن كانوا على الطريق. »

وقلت في نفسي: « إن « الدونز » قتلة! سارقون! إنهم « الدونز » المنسوبون إلى المكان المعروف بـ « باغوورثي ». الكل يكرههم ويخافهم. »

وارتجفتْ رُكبتاي ولمْ أتردَّدْ في سُؤال « جون »:

- « أَتعتقدُ أنّهم سَيَرَوْننا في هذا الضبابِ الكثيف؟ »

– « إن بمقدورهم أن يَرَوْا الأشياءَ مِن خلالِ أشدِّ أنواعِ الضّبابِ كثافة. إن اللهَ لم يخلقْ ضباباً يُعْجِزُ نظَرَهم عن رُؤية الأشياءِ وراءه. والآن عليكَ أن تصمُتَ إذا أردتَ أن تحيا وأن ترى وجهَ أُمِّكَ بخير. »

ووصلنا إلى وادٍ سحيق، وأخذنا في الانحدار. ثم تناهى إلى سمعي صوتُ خُيول، وصوتُ لُهاثِ رجالٍ أنهكَهم التَّعب.

– « انزلْ عن حصانِكَ »، قال « جون فراي » بصوتٍ مُنخفض. « دعِ الحصانَ يذهب! »

وانبطحْنا على الأرضِ خلفَ شجرةٍ صغيرةٍ، وكانتِ الطريقُ تحتَنا مباشَرَةً. ومرّ الفارسُ الأوّل، وفجأةً انقشعَ الضبابُ ورأينا ضوءاً أَحْمَرَ.

وهمسَ « جون » في أُذني قائلاً: « إنه ضوءُ النارِ المُنْبَعِثَةِ من « دانكري هيـل ». إن « الدونز » يُشعلون هذه النارَ ليهتدوا بها الى منازِلِهم. »

كنتُ مُنْبَطِحاً على مسافةِ عشرينَ قَدَماً فوقَ رؤوسِ الفرسانِ المارّين من تحتي. كانوا رجالاً ضِخاماً يحملون البنادقَ. وكانت جيادُهم مُحَمَّلَةً بالبضائعِ المسروقةِ، من كؤوسٍ فضيَّةٍ وذهبيَّةٍ إلى صناديقَ مُختلفة. وحتى الخرافُ الميتةُ كانوا يحملونها على ظهورِ جيادِهم. ولاحظتُ أنَّ أحدَهم كان معه فتاةٌ على حصانِه، وأنَّ الفتاةَ كانت ترتدي ثوباً جميلاً... لقد كانتْ هي الفتاة الصغيرة التي رأيتُها في العَرَبَةِ بجانبِ السيّدة.

لم يكن هؤلاءِ الرجالُ لِيعرفوا أنَّ هذه الفتاةَ ستكونُ، في السنواتِ القادمةِ، سبباً في موتهم وحرق منازلهم. وأنَّى كان لهم أن يعرفوا هذا؟.

لم أَجِدْ أبي في انتظاري عندما وصلنا. كانت أُمي هناك، ودموعُها تَنْهَمِرُ من مُقلتيها. أما أبي فقد مات... لقد قتله « الدونز ».

« الدونز » يقتلون أبي

إذاً قتل « الدونز » أبي.

كان يمتطي جوادَه بعد أن غادر قرية « پورلوك » الصغيرة، وكان معه خمسةٌ من المزارعين. وفجأةً اعترضهم واحدٌ من « الدونز »، وأمرهم بتسليمه جميعَ ما يحملون من مال، فانصاع له كلُّ من كان برفقةِ والدي، غَيْرَ أنَّ والدي أبى أن يُسَلِّمَ اللِّصَّ ما معه، ثم اندفع بعُنفٍ مُحاوِلاً قتلَه. ولم يكن والدي يعرفُ أن بصحبةِ هذا اللصِّ اثنا عَشَرَ رجلاً من أصحابه. انهالوا جميعاً على والدي فقتل ثلاثةً منهم، ولكن واحداً من المُعتَدين كان يحمل بُندقيّة. كان اسمُه « كارفر دُون ».

لقد أطلق « كارفر دُون » هذا النارَ على والدي فقتله. ووُجِدَتْ جُثَّةُ والدي في اليومِ التالي وإلى جانبِها عصاه المُحطَّمة.

أما نحن، فكُنا ثلاثة، صَبيًّا وفتاتين: أنا، « جون ريد »، كنتُ أكبرَهم، تليني أُختي « آني »، ثم أُختي الصغيرةُ « ليزي ».

مَنْ هُمْ « الدونز »؟

لا بُدَّ من إخبارِكم « عن الدونز ». فمَن هم، وكيف جاءوا إلى « باغوورثي »؟

في العام ١٦٤٠ (أي ثلاثين عاماً قبلَ تركي المدرسة) كان هناك رجُلان يملكانِ أراضيَ شاسِعةً في « إنكلترا ». ولم يكن أحدٌ يشاركُ هذين الرجلين في مُلْكيَّتِها لهذه الأراضي. وكانا يتقاسمان كلَّ ما تَدُرُّه عليها بالتساوي. وكان اسمُ الأول « اللورد لورن دُون » واسم الثاني « السِير إنسور دُون ».

وحصل شجار. فقد أراد « اللورد لورن » أن ينفردَ بمُلكيَّة نصفِ الأراضي. فلم يَكُنْ يريدُ نصفَ المالِ، بل نصفَ الأراضي. أما « السير إنسور » فخالفَه في ذلكَ واحتكم إلى المحكمة في « لندن ». وسمع القاضي كلامَها في المحكمةِ وكان حُكْمُهُ صريحاً: ليست هـذه الأراضي مُلْكاً لأيٍّ من الرجلين.

غضب « السير إنسور » لهذا غضباً شديداً. وقرَّر أن يُصبحَ خارجاً على القانون. ثم توجَّه إلى مكانٍ قَصِيٍّ في « إنكلترا ». واختار لنفسه وادياً تحيط بجانبيه صُخورٌ مرتفعةٌ، واستقرّ هناكَ مع مَن كان معه. وكان عددُهم في بادىء الأَمرِ اثني عَشَرَ رجلاً. ومع الأيام تضاعف هذا العددُ وازداد.

وفي أوَّلِ أمرهم كان « الدونز » مسالمين، ولم يتعرَّضوا لأحدٍ بأذى. وكان أهلُ المنطقة التي سكنوا فيها يشعرون بالأسى لِـمَا حلَّ بـ « السير دُون » من مَآسٍ. وما هي إلا فترةٌ قصيرةٌ حتى بدأ « الدونز » يتعرّضون للمارَّةِ وللمزارعينَ بالسَّلب، ولم يتورَّعوا عن قتلِ أيِّ إنسانٍ يقفُ في وجههم للدفاعِ عن نفسه. عندئذٍ انقلب عطفُ الناس إلى كراهيةٍ وحِقدٍ ممتزجَيْنِ بخوفٍ شديد. ولم يستطعِ المزارعونَ مقاومةَ « الدونز » لشدةِ بَأْسِهم وسَطْوَتِهم. فقد كان « الدونز » أقوياء جداً، حتى إنهم كانوا يُعَلِّمونَ أولادَهم الرمايةَ في طفولتهم.

كنتُ عند مقتلِ أبي صَبِيًّا يافعاً، ولكني كنتُ أعلم أن الأيّامَ أمامي. وأخذتُ بُندقيةَ أبي وتدرّبت على الرمايةِ وحدي. لقد قرَّرتُ أن أُعِدَّ نفسي لليوم الذي سأقتلُ فيه «كارفر دُون». نعم... إن عليّ أن أقتلَ الإنسانَ الذي قتل والدي.

يومٌ لا أنساه ما حَيِيت

أمام مزرعتنا نهران: نهر «باغوورثي» ونهر «لين». وعلى بُعد حوالَى ميلين مِن مزرعتنا يلتقي النهران ويكوِّنان مجرى عظيماً يتشعَّبُ في الهضابِ والغابات، وتنشأ عنه بُحيْراتٌ صغيرةٌ ذاتُ أسماءَ.

وكنت أخرجُ في الصيف أحياناً مع أُختي آني لصيد بعضِ الأسماك. وكنتُ كذلكَ أخرجُ وحدي أحياناً.

بلغتُ الرابعةَ عَشَرَةَ من العمر. وكانت أُمي في فترةٍ من الفَتَرات مريضةً، وكُنت أعرفُ أنّها تُحِبُّ نوعاً خاصاً من الأسماك، فقرَّرت أن أذهبَ للصيدِ لآتِيَها بما تُحبّ. وشجّعني على ذلكَ صفاءُ الجوِّ في ذلك اليومِ الرّبيعي الرائع. ولستُ أنسى هذا اليوم ما حييت.

مشيتُ مسافَةَ ميلين... أذكرُ الأشجارَ التي

بدأتْ تستعدُّ للإثمار. وأذكرُ لفحةَ النسيم الباردِ التي رافقتْني في رحلتي. واصطدتُ هنا وهناك، حتى وصلتُ إلى مكانٍ يتّسعُ فيه النّهر. كان الماءُ بارداً جداً هناكَ، ولم أُوَفَّقْ في الصيد فيه، فقرَّرتُ العودةَ إلى المنزلِ، وتهيّأتُ قبلَ ذلكَ لتناولِ الطعام. وشعرتُ بالقُوَّةِ تسري في جسمي بعد أن تناولتُ قطعةَ اللحمِ التي أخذتُها معي. ولذلكَ قرَّرتُ أنْ أُتابعَ مسيري صُعوداً بجانبِ نهر «باغوورثي» وُصُولاً إلى وادي «الدونز».

كان ماءُ النهرِ شديدَ البُرودة. وأَرعبتْني تلكَ الأَمْكِنَةُ السوداءُ التي كُنْتُ أُشاهدُها تحت الأشجارِ، وتهيَّأَ لي أنَّ الأشجارَ ترفعُ أَغصانَها متهيِّئةً لتضربَني. ولم أَحسِبْ للوقتِ حساباً. وكنتُ أصيح فَرِحاً كُلَّما وجدتُ سمكاً أصطاده، وكان صدى صوتي يرجعُ إليَّ من التلالِ المُحيطةِ فيمتزجُ بخرير الماءِ من حولي.

ووصلتُ إلى فُتحةٍ بين الأشجارِ، وشاهدتُ

هناكَ بركةً مستديرةً عميقة. ووجّهتُ بصري نحوَ الصّخرِ المُرتفعِ في الجهةِ المقابلةِ ورأيتُ منظراً بهيجاً، فقد كان هناك جَدْوَلٌ صغيرٌ يسري على ذلك الصخر العاتي.

كُنتُ أُجيدُ السِّباحةَ، ولكنني لم أسبحْ لشعوري بالتعب، وللخوفِ من البلل. وحجَبَتِ الصخُور المُرتفعةُ النورَ، وشعرتُ بالخوف. أَردتُ أن أَعودَ، ولكنني قُلت لنفسي: «أتُخيفُني هذه الصخور والأشجار؟ أأرضى أن أقولَ هذا لأمي عند عودتي؟»

ووضعتُ سلّةَ الأسماكِ حول رَقَبتي واتجهتُ إلى الصّخور. وكان بعضُ هذه الصخورِ مُغطّى بنباتٍ طَرِيٍّ. فزلَّتْ عنه قدمي ووقعتُ في الماء فسبحت. وظننتُ أني مشرفٌ على الموتِ لشدَّة الألمِ في رجليّ. وعدتُ أتسلَّقُ الصخور، وكان الماءُ يلامسني أحياناً. وقاومتُ بعنفٍ حتى وصلتُ، ثم ارتميت على الحشائش.

« لورنا دُون » تُنقِذُني

فتحتُ عينيّ، وإذا بفتاةٍ صغيرةٍ إلى جانبي، تمسح وجهي بخرقةٍ مُبَلَّلة.

قالت: « إني سعيدةٌ الآنَ لأنكَ استعدتَ وَعْيَك. ستشعُرُ بالتحسُّنِ سريعاً. »

لم أكُنْ قد سمعتُ في حياتي صَوْتاً بنُعومةِ صوتها، ولا رأيتُ عينينِ أجملَ من عينيها، ولا شعراً أجمل من شعرِها الداكن. وتمثَّلتُها كزهرةٍ نَضِرَةٍ، فلم تغبْ صورتُها عني في حياتي القادمة. ولعلّها استحسنتْ وجهي، فقد أخبرتْني بذلك في وقتٍ لاحق.

وحاولتُ الجلوسَ، وإذا بها تسألُني:

– « ما اسمُك؟ وكيفَ جئتَ إلى هُنا؟ وما الأشياءُ التي في سَلَّتِكَ؟ »

– « إنها أسماكٌ اصطدتها لأمي. ولكنْ باستطاعتي أن أُعطِيَكِ بعضَها إن شِئت. »

فنظرتْ إلى رِجْلِي وقالتْ بحنان: « لقد جَرَحْتَ رِجلَكَ، وسأربطها مَنْعاً لالتهابها. »

– « لا عليك! سأفعلُ هذا حالما أصلُ إلى البيت. الحقيقةُ أني لم أرَ مخلوقاً بجمالِكِ. إن اسمي « جون ريد ». ما اسمك أنت؟ »

– « لورنا دُون. » قالتها بصوتٍ مُنخفض.

ووقعَ الاَسمُ « دُون » على أُذُنَيَّ بقُوَّة. إن هذا الاسم يعني لي أشياءَ كثيرة. إذاً هي واحدةٌ من « الدونز » الذين قتلوا والدي. ورغمَ ذلك لا أستطيعُ أن أكرهَها لذلك. لقد لامس صوتُها أعماقَ قلبي، كما استمتعتُ برؤيةِ شعرِها الأَسودِ الجميلِ مُنْسَدِلاً على كَتِفَيْها، وبرؤيةِ إشراقةِ عينيها كالشمسِ المُضيئة.

ثم بدأتُ أجمعُ أغراضي، وتعمَّدتُ إحداثَ ضَجَّةٍ لأسترعِيَ انتباهَها لعلَّها تناديني قبلَ أن أغيبَ عنها. ولكنها لم تفعلْ. وكنتُ أعلمُ أنني غيرُ قادرٍ على تَسَلُّقِ الصُّخور، وأنّي إن غامرتُ لاقَيْتُ

حتفي. والتفتُّ إلى الوراءِ مُصطنِعاً الدهشةَ وناديتُها باسمها.

– «آه! لقد ظننتُكَ قد رحلتَ. لِمَ جئتَ إلى هذا المكان؟ ألا تعلمُ أنَّ «الدونز» سيقتلونكَ إنْ وجدوكَ هنا.»

– «قد يضربونني، ولكنّهم لن يجرؤوا على ضربكِ.» قلت هذا بشيءٍ من الاعتداد بالنفس.

– «بل سيقتلوننا معاً، ويرمون بنا إلى النهر!»

وقلتُ بدهشةٍ: «ولكن لِمَ يقتلونني؟»

– «لأنَّكَ اكتشفتَ الطريقَ السِّرِّيَّ الذي يسلكونه إلى وادي «الدونز». أرجوكَ أن ترحلَ الآن. إني ارتاحُ اليكَ وسأُناديكَ باسمكَ الأولِ «جون». عندما يشفى جُرح قدمكَ تستطيعُ أن تزورَني. ولكن أرجوكَ أنْ ترحلَ الآن.»

– «إني أحبُّكِ يا «لورنا».. أحبُّك كما أُحبُّ

أُختي «آني» تقريباً، وأكثرَ مما أُحِبُّ أُختي الصغيرة «ليزي». سآتيكِ بالتفاح وبكلبٍ صغيرٍ في المرّة القادمة.»

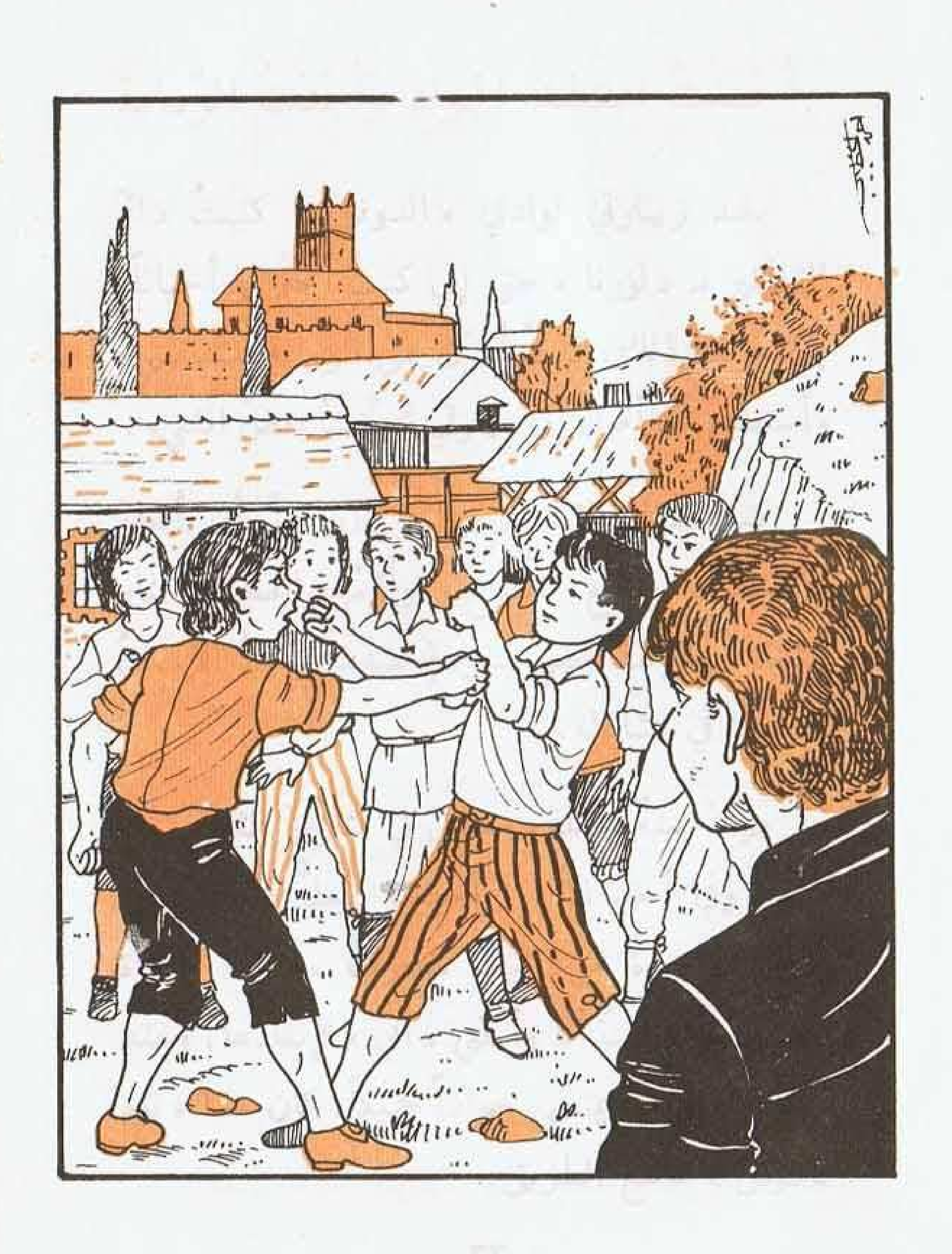
– «ولكنهم لن يسمحوا لي بالاحتفاظ بالكلب، فليس هناكَ كلبٌ واحدٌ في وادي «الدونز» كلِّه.»

وأمسكتُ بيدها. وفجأةً سمعنا صُراخاً، فانقلبَ لونُ وجهِها إلى البياض. وصرختْ: «أرجوكَ، ساعدني!»

– «تعالَيْ معي إلى تلكَ الصخرة!»

– «لا. لا.» قالت بسرعة. «سيَرَوْننا هناك. أترى هذه الفُتحةَ قُرْبَ هذه الشجيراتِ المُلْتفَّةِ الأغصان؟ هناكَ طريقٌ من هذه الفتحةِ للخروج من الوادي. سيقتلونني إنْ علِمُوا أنني أخبرتُكَ بهذا السِّرِّ.»

ورأيت عَشَرَةَ رجالٍ أو أكثرَ على مسافةٍ قريبةٍ،



فقفزتُ بسرعةٍ وشددتُها من يدها. وكان الرجال يصرخون: « أيتها الملِكة! أيّتها الملكة! أين أنتِ؟ »

وقالت مفسِّرةً: « ينادونني دائماً « ملكة »، ويقولون إنني عندما أكبرُ سأُصبحُ ملكةً على هذا الوادي. »

- « المهمُّ الآنَ أن نختبئ. سأنزل أنا إلى الماء. أما أنتِ فاستلقي على العشبِ هناكَ مُدَّعِيَةً أنكِ نائمة. »

وركضتْ « لورنا » إلى حيثُ قلتُ لها، وفعلتْ كما أشرتُ عليها. ومكثتُ أنا في الماءِ حتى رقبتي، وكان رأسي بارزاً بين الأعشاب الطويلة. وبعد قليلٍ رآها أحدُ الرجالِ فدنا منها وحملها، ثم صاح مُبتهجاً: « ها هي ملكتُنا! ها هي ابنةُ قائدِنا! »

أما أنا فانتظرتُ رحيلَ القوم، ثم نهضتُ مُتوجِّهاً إلى الحُفرةِ التي حدَّثتْني « لورنا » عنها، وانطلقتُ عائداً في طريقٍ مظلمٍ وطويل.

أَحْسَنْتُ امتطاءَ الجواد وَأَجَدْتُ الرِّماية

بعد زيارتي لوادي « الدونز »، كنتُ دائمَ التفكير بـ « لورنا » حتى إني كنتُ أحلمُ بها أحياناً. إلى جانب ذلك، كنتُ أتمرّن على الرمايةِ ببندقيتي، وأستطيعُ أن أقولَ إن مهارتي تحسَّنَتْ بعضَ الشيء.

كنت دائمَ الانشغالِ، إذ كان عليَّ أن أقطعَ الأعْشابَ، وأجمعَ التُّفّاحَ، وأُؤَمِّن الحطبَ لنارِ الشتاء. والوقتُ يمضي بسرعةٍ عندما يكونُ الإنسانُ منهمكاً في مشاغله.

مرَّتْ سنةٌ كاملة، وهطل في تشرينَ الثاني شتاءٌ كثير. وفي أحد الأيامِ، أحدث البطُّ ضجّةً كبيرةً ورأينا واحدةً من البطِّ تنجرفُ مع الملء باتجاه الجسر، فأسرعتُ أنا وأختي « آني » لإنقاذها. وعند ذلكَ جاء رجلٌ يمتطي جواداً جميلاً. كان هذا « توم فاغوس » قاطعَ الطريق.



قال: « سأُنقذ البطة ». ثم همس شيئاً في أُذُنِ جوادِه، فما كان من الجواد إلا أن نَزَلَ في الماء متوجِّهاً إلى حيثُ البطة. وأنقذ « توم » البطَّةَ المسكينةَ وخرج من الماء. وقلتُ في نفسي: « يا له من جوادٍ ذكي يفهم كلامَ البشر! »

ووقفتُ أنا و « آني » نتأمل ذلك الجواد.

– « أتظنُّ أنَّ باستطاعتكَ أن تَمْتَطِيَ حِصاني؟ » قال « توم فاغوس » يخاطبني.

– « باستطاعتي أن أمتطيَ أيَّ حصان! »

– « حسناً! ولكنَّ الأرضَ هنا تُعَرِّضُ الجوادَ للانزلاق... » ثُمَّ أردف: « أنا ابنُ عمِّك، « توم فاغوس »، وهذا جوادي « ويني »... »

وكنتُ قد سمعت أن « ويني » لا يسمح لأحد بامتطائه إلا « توم »، ورغم ذلكَ قلت له: « سأحاول ».

وامتطيتُ الجواد. وأحدث « توم » صوتاً

خاصّاً، ما إن سمعه الجوادُ حتى أخذ يركض مُسْرِعاً، ثم أحدث « توم » صوتاً مختلفاً، فإذا بالجواد يحاولُ أن يرمِيَني من على ظهره. كان الجوادُ يقفز بعنفٍ محاولاً جهدَه التخلُّصَ مني. وكم سعدتُ عندما صدر صوتٌ آخرُ عن « توم »، انصاع له الجوادُ بمجرَّد سماعِه، فرجع بي إلى حيثُ انطلقنا. غَيْرَ أنَّ فرحتي لم تكتملْ، إذ ألقاني الجوادُ عن ظهره، رغمَ ذلكَ، حالما وصلنا إلى المكان الذي كان « توم » يقف فيه.

– « أحسنتَ يا « جون ». لم أَكُنْ أتصوَّرُ أنَّ باستطاعتِكَ أن تصمدَ كلَّ هذه المُدَّة. ومكافأةً لكَ، سأشتري لَكَ بُنْدُقِيَّةً جديدة. »

وانصرف « توم ». ولم يَطُلْ به الوقتُ حتى أحضرَ لي بندقيَّةً جديدة. وأخذتُ أتعلّمُ الرماية بها، وأجَدْتُ ذلك.

مضت سبعُ سنوات، صِرْتُ بعدها شابًّا.

الخال « روبن »

كان السيّدُ « روبن هاكباك » خالُ والدتي (وكان من سُكان « دلفرتون ») صاحبَ أكبرِ محلٍّ تجاري للألبسة في تلك القرية. وكانت له حفيدةٌ اسمُها « روث »، وكانت أمي تعتقدُ أنَّ عليَّ أنْ أُصادِقَ هذه الفتاة. وكنت أَعلمُ أنَّ أُمي تفكرٌ في اليوم الذي ترث فيه « روث » جدَّها، وتكون من نصيبي.

وكان من عادة الخال « روبن » أن يَزورَنا كلَّ عامٍ بمناسبةِ رأسِ السنة. فكان ينطلقُ في الصباح الباكر، لأنَّ هذا الوقتَ هو الأفضلُ للتخلُّصِ من ملاقاةِ « الدونز »، وهم مشهورون بكسلهم، وقلما يستيقظون قبلَ الظهر. أما في هذه السنةِ، فكانت تقديراتُ خالي غيرَ مُصيبة: خرجوا باكراً على غيرِ عادتهم، وكانوا يبحثون عن شيءٍ من المرح واللهو دون أن يقصدوا إلى السرقة هذه المرّة.

انتظرنا الخالَ « روبن » حتى الساعةِ الواحدةِ بعدَ الظهر، ولكنه لم يأتِ. وكان هناك ضبابٌ كثيفٌ يَلُفُّ المنطقةَ، حتى أننا لم نكنْ نرى على بُعد عَشَرَةِ أقدام. وطال انتظارُنا، ولم يَحْضرِ الخالُ. وكُنا قد أَعددنا مائدةً شهيةً جداً.

وزاد اضطرابُ والدتي، وقالت: « يا « جون ». أظنُّ أنَّ أولئكَ الناس قد أصابوا خالي بمكروه. »

كانت تعني « الدونز »، لكنها لم تكن تتلفظ باسمهم.

وقرّرنا أن نجلسَ إلى المائدة. وبعد انتهائنا من الطعام خرجتُ، وبندقيّتي معي، للبحث عن الخال « روبن ». ووجدت صعوبةً كبيرةً في رؤية طريقي نظراً لكثافة الضباب. كنتُ أناديه كلَّ حين. وبحثتُ بين الأشجار عنه، ولكني لم أجدْ له أثراً. وبعد ذلك رأيت أنهُ من الأفضل أن أرجعَ إلى البيت.

وفجأةً، سمعتُ صوتَ رجلٍ يئنُّ، فاتجهتُ رأساً إلى مَصْدَرِ الصوت، ورأيتُ جواداً. وهنا كانت المفاجئة: على ظهر هذا الجواد رُبِطَ رجلٌ، رِجْلاهُ إلى فوق، ورأسُه إلى تحت. وبدا الخوفُ على الجواد من هذه الطريقة التي رُبِطَ بها صاحبُه، وكان يقفزُ محاوِلاً التخلُّصَ منه. أما الرّجلُ المربوطُ فكان الخال «روبن»! كاد المسكينُ يموت فَزَعاً.

وتظاهرتُ أنّي لم أعرفْه. وأمسكتُ برأسِ الجواد، قائلاً للرّجل: «لا تَخَفْ يا سيّدي. لن يُصيبَكَ مكروه.»

– «ساعِدْني يا صديقي، أيًّا كنت. لقد أَرْسَلَتْكَ السماءُ إليّ لإنقاذي من اللصوص الذين استولَوْا على كلِّ ما أحمل.»

وهنا لم أستطِعِ الاستمرارَ في تجاهلي له، فقلتُ وكأنني مندهش: «آه... أنتَ الخال «روبن»!.. لماذا تمتطي جوادَك بهذه الطريقة، وأنت أغنى رَجُلٍ في «دلفرتون»؟»

ولم يَقْوَ على إجابتي. فأنزلتُه عن جواده، وساعدتُه على امتطاء جوادي. واستسلم للنوم ونحن في طريقنا. ولما وصلنا، نظّف ثيابَه وانطلقَ إلى الفراش لينامَ.

بعد ساعاتٍ قليلةٍ، استيقظ الخالُ «روبن» وأخذ يكلّم نفسه، وكنتُ أسمعُ دونَ أن يراني. قال: «يجب أن يتزوّجَ «جون ريد» حفيدتي «روث». لقد سرق «الدونز» كثيراً من مالي، ويجب أن يأخذَ «جون» الباقي.» قال هذا ثم استسلم للنوم من جديد حتى العشاء.

انضمَّ إلينا في المساء أحدُ الأصدقاءِ واسمُه السيد «سنو» مع بناته الثلاث. وكان من أعيان مُزارِعي البلدة. وقبع خالي «روبن» صامتاً في الزاويةِ، وفي آخرِ السّهرةِ حدَّث ضيفَنا عما صادفه صباحاً مع «الدونز». وقال الخالُ يختُمُ كلامه: «أنتم مَعْشَرَ المزارعين، جبناء، لِمَ لا تجمعون أنفسكم

وتذهبوا لمقاتلة « الدونز » فتطردوهم من هذا المكان؟ إنكم تجيدون الأكلَ والكلام. ولكنكم شديدو الخوف فيما يتعلق بالقتال. »

اللجوء إلى القاضي

في اليوم التالي، أراد الخالُ « روبن » أن يزورَ القاضيَ الأعلى لمنطقتنا، واسمُه « اللوردُ فيكهالس ». اصطحبني الخال معه. واستقبلنا « اللوردُ فيكهالس » عند وصولنا استقبالاً حارًّا. ولما سمع قصّةَ الخالِ « روبن »، استغرقَ في الضَّحِك. وقال: « ولكن ما الذي يجعلك متأكداً من أن « الدونز » هم الذين سرقوا أموالَك؟ قُلتَ إن الضبابَ كان كثيفاً جداً، فهل تستطيعُ أن تُميّزَ وجوهَ الرجال؟ هل بإمكانك أن تُبَرْهِنَ لنا أن « الدونز » هم الذين تعرّضوا لك؟ »

عندما سمع الخالُ « روبن » ما قاله القاضي، اشتدّ غضبُه وقال مُحتَدًّا: « أهذه هي عدالةُ المَلِكِ الذي تُمثلونهُ؟ سوف أذهبُ إلى « لندن » وأُخْبِرُ المِلكَ بنفسي عن الحالةِ التي وصلت إليها العدالةُ في هذه المنطقة في المملكة، منطقة « سومرست ».. »

وهنا تنفَّس القاضي الصُّعَداءَ وقال مبتسماً: « إذاً، لقد حصلتْ هذه السرقةُ في « سومرست ». إن هذه المنطقةَ لا تخضع لنُفوذي، فعليكَ أن تَشْكُوَ أمرَكَ إلى القاضي المُختصِّ في تلك المنطقة. »

وخرج الخال « روبن » غاضباً، وأخبرني أنه يعرفُ رجـلاً في « لنـدن » يُدعـى القاضي « جيفريز ». ثم خاطبني بقوله: « تذكَّر كلماتي هذه يا « جون ريد ». لن تنتهيَ هذه المسألةُ عند هذا الحد. عندي خُطّةٌ أخرى، فأنا أعرف شخصاً أقوى من الملك نفسِه. باستطاعتي أن أُرسلَ رسالةً إلى القاضي « جيفريز » هذا. »

وفي طريقنا إلى المنزل، رأينا بعض الأزهار الجميلة.. وقال الخال « روبن » مُعلِّقاً: « انظرْ إلى هذه الأزهارِ الجميلة! ما أروعَ الطبيعةَ هنا! »

لقد جعلني منظرُ الأزهارِ أتذكّر « لورنا دُون » واليومَ الذي رأيتُها فيه وحدَّثتُها. هل تُفكِّر بي يا تُرى؟

في اليوم التالي، قال الخال « روبن » إنه يودُّ أن يُشاهدَ وادي « الدونز ». قلتُ له إني أعرفُ الطريقَ، فطلب مني أن آخذَه إلى هناكَ. وانطلقنا دون أن نُخبرَ أحداً بذهابنا.. امتطينا جوادَيْنا وذهبنا، مبطئِينَ، عبر غابة « باغوورثي »، صعوداً باتجاه الهضبة القريبة من الوادي الذي يقطن فيه « الدونز ». كانت هناك هضبةٌ عاليةٌ على جانب الغابة، وكان باستطاعتنا أن نرى وادي « الدونز » من هناك.

وصلنا إلى قمة الهضبة أخيراً، ونظرنا إلى حافة الغابةِ باتجاه وادي « الدونز ». وكان الخال « روبن » ينظر بتمعُّن في التّلالِ المحيطة.

قال: « إنّ من السهلِ السيطرةَ على هذا المكانِ من الناحيةِ العسكرية. كلُّ ما نحتاجُ إليه هو أن نأتيَ بعددٍ من الجنود مزوَّدين بمدافعَ ضخمة. يُمكننا أن نُهاجمَهم من أعلى الهضبة مركَّزين مدافعَنا هناكَ، ولن نحتاجَ إلى أكثرَ من ثلاثةِ مدافعَ على

هذه الهضبة وإلى ثلاثةٍ أخرى على تلكَ الهضبة التي تراها. بذلك نسحقهم سحقاً.»

لم أكُنْ أستمعُ لِمَا يقول، بل كُنتُ أنظرُ إلى تلكَ الفُتحةِ الصغيرة في الصّخر، وهي الفتحةُ التي أخبرَتني عنها «لورنا». وبينما أنا كذلك، رأيتُ شخصاً يدخل في تلكَ الفُتحة. كان شخصاً صغيراً، وأبيضَ، وجميلاً.. نعم، لقد كانت «لورنا دُون». شعرتُ بِضرَباتِ قلبي تَقْوَى. كنتُ أعلمُ أنَّ حياتي مرتبطةٌ بحياةِ هذه المخلوقةِ بطريقة من الطُّرُق.

– «علينا أن نأتيَ لزيارة هذا المكان مرّة لاحقة.» قال الخال «روبن» مُفْسِداً عليّ تفكيري بـ«لورنا». ثم أردف: «عليك أن تُراقبَ وادي «الدونز»..»

وضحكتُ قائلاً: «أعدُكَ بأني سأفعلُ ذلكَ.»

«لورنا» تملك عليّ قلبي وأفكاري

بَعْدَ أنْ غادرَنَا الخالُ «روبن» إلى مَنْزِله، أَخَذْتُ أُفَكِّرُ بالقيامِ بزيارةٍ أُخرى لوادي «الدونز». ذهبتُ إلى البلدة واشتريتُ ثياباً جديدةً، ثم انطلقتُ في رحلتي مُسْرِعاً. ووصلتُ إلى الصُّخُور وأَخَذْتُ أتَسَلَّقُها، ورأيتُ أنها أصبحت صغيرةً في نظري لأنني قد كبرتُ. تسلقتُ الصخورَ بسُرعةٍ وسهولة. ولما وصلتُ إلى القمَّة، نظرتُ مِنْ حَوْلي بانتباه وحذر قَبْلَ أن أَخرُجَ إلى العشبِ الأخضرِ قُرب المجرى. كانت الأشجارُ قد أَزْهَرَتْ، واختلطَ لونُ أزهارِها بصفحةِ السماء.

بينما كنتُ أَستَمْتِعُ بالمنظر الرائع هذا وبأصواتِ الطبيعة، سمعتُ صوتاً أَجْمَلَ من زقزقة الطيور. كان صوتَ «لورنا دُون». ظللتُ مختبئاً، لأني خشيتُ أن تراني فتفزَعَ وتُولِّيَ هاربة. وبعد دقائقَ نظرتُ من حولي، فرأيتُ منظراً لم أرَ مِثْلَهُ في حياتي

لروعته. وما زالت ذكراه عالقةً في مُخيِّلتي حتى اليوم.

كانت تسيرُ بجانب الماء، مُتَّجِهَةً نحوي. لم أَسْتَطِعْ أن أرى وَجْهَها بوضوح. لم أرَ سوى شَعْرِها الأَسْوَدِ مُزَيَّناً بالزُّهُور البيضاء. وكان ظِلُّها يلاحِقُها، فكأنَّ الشمسَ كانت تنتظرُ لتُلْقِيَ عليها النظرةَ الأخيرةَ لذلك اليومِ قبلَ أن تَغيبَ في الأُفُق. والحقيقةُ أني، حتى هذا اليوم الذي صِرْتُ فيه كبيراً، لم أرَ مَنْظَرَ مَغِيبِ الشّمس دونَ أنْ أَسْتَجْمِعَ في ذاكرتي منظر « لورنا » في ذلكَ اليوم.

خرجتُ من المخبأ بينَ الصخور، وأحسستُ أنها رأتني فأرادت أن تَذْهَبَ لأنها لم تَعرِفْني. ولعلَّ ضَخَامَةَ جِسمي أَخافتها. وانزلقتُ إلى العشب كما حصل لي منذ سبع سنوات يوم شاهَدْتُها. وناديتها: « لورنا دُون ». ورأيتُ عندئذٍ بَسْمَةً تعتلي شفتيها، فقد عَرَفَتْني وأَسَرَّها وُجودي، ولكنها ادّعَتْ أنّها غاضِبة.

نَظَرَتْ إلَيَّ بِدَهْشَةٍ وقالتْ: « ومَنْ أنتَ؟ وكيف تَعْرِفُ اسْمي؟ »

– « أنا « جون ريد »، ذلكَ الصبيُّ الصَّغيرُ الذي أعطاكِ السَّمَكَ منذ سبعِ سنوات. »

– « نعم، أَذْكُرُ الآنَ. الصَّبِيُّ الصغيرُ الذي كان خائفاً في ذلك اليوم. ولكنْ، أَنَسِيْتَ أَنَّ هذا المكانَ فيه خَطَرٌ عليكَ؟ »

شعرتُ أنَّها خائفة. كانت تَخْشَى أن يرانا أحدٌ ويُطْلِقَ النَّارَ علينا. كانت عيناها مُتَسَمِّرَتَيْن وهي تَنْظُرُ إلي. ولم أَسْتَطِعْ أنْ أُجِيبها. كنتُ أَعْلَمُ أنني سَأُحِبُّها إلى الأبد، وأني لَنْ أَسْتَحِقَّها لأنها أفضلُ مِنِّي بكثير. وبعدَ صَمْتٍ طويلٍ، شَعَرْتُ أنَّ من الأفضل أن أَرْجعَ إلى البيت، فقلت:

– « يا آنسة « لورنا »، سوف أَذْهَبُ لأنني أَعْلَمُ أنَّكِ خائفة، ولأنني أعلمُ كذلك أنكِ ستحزنين لو قتلوني. وستموتُ أُمّي غمًّا لو حصل ذلك. حاولي أن تُفكّري فِيَّ من وقتٍ إلى آخرَ، وسوف أَزُورُكِ

في المستقبلِ حاملاً إليكِ البيضَ الطازَج . »

– « أَشْكُرُ لَكَ هذا ، ولكن عليكَ أَلاَّ تجيءَ لتبحثَ عني . باستطاعتِك أن تَتْرُكَ البيضَ في سَلَّةٍ عند المخبأ الصغيرِ الذي بين الصخور . »

وَدَّعَتْني وعلى ثَغرِها ابْتِسامَةٌ مُشْرِقَةٌ نَفَذَتْ إلى قلبي . أَمْسَكْتُ يَدَها الناعمةَ مُودِّعاً ، وأسرعتُ في الرَّحيل .

في الأُسبوع الذي تلا هذا ، لم أَسْتَطِعْ أن أقومَ بأيِّ عمل . كنتُ دائِمَ التفكير بـ « لورنا » . بل إني كنتُ أَحْلُمُ بها . وظنَّ الجميعُ أنني مريض . وأخبر خادمُنا « جون فراي » الناسَ أنّ كلباً مسعوراً قد عضّني ، وأظنُّ أنهم صدَّقوه . أما أُمي فكانت تجلسُ إلى جانبي على السرير وتَطْرَحُ عَلَيَّ الأسئلةَ . ولم أكن أُريدُ الإجابةَ ، فكلُّ ما كنتُ أفعلُهُ هو التفكيرُ بـ « لورنا » طوالَ الوقت .

« لورنا » تُحَدِّثُني عن حياتِها

أَصْبَحَ الجَوُّ دافِئاً بَعْدَ أُسْبوعَيْن وظَهَرَ الرَّبيعُ بِكُلِّ رَوْعَتِه ، فاخْضَرَّتِ الحُقُولُ وعَبِقَتْ بِرائِحَةِ الأزهار الرَّبيعِيَّة . وخرجتُ في يومٍ من الأيام في نُزْهَةٍ ، وحفرتُ على شجرةٍ قديمة الحرفين « ل » و « د » ، وهما الحرفان الأوّلان من اسم « لورنا دُون » . وشعرتُ وأنا أَحْفُرُ هذين الحرفين أنّ عليّ أن أذهَبَ لزيارة « لورنا » مرّةً أُخرى . أَسْرَعْتُ إلى البيتِ ، وأَخذتُ أحسنَ ما عندي من ثياب . وحاولتُ أَلاَّ أدَعَ أُخْتَيَّ تريانني ذاهباً . وقد ارْتَدَيْتُ أَحْسَنَ ثيابي . ولذلكَ ذهبتُ إلى الأشجارِ التي خلفَ البيت وارتديتُ ثيابي هناكَ .

مشيتُ في طريقي ، فَمَرَرْتُ بغابةِ « باغوورتي » صُعوداً مع مجرى الماء . وكان من الصعب تَسَلُّقُ الصُّخُورِ هذه المرّةَ بسببِ غزارةِ الماء في ذلكَ الوقتِ مِن السنة . ولَمَّا وصلتُ إلى مكان العشب ،

استلقيتُ وأخذني النومُ قليلاً.

استيقظتُ على أنغامِ الماءِ، ونظرتُ من حولي فرأيتُ الشمسَ من بعيد، ثُمَّ رأيتُ «لورنا» تَدْنُو مني قائلةً: «يا سيد «ريد»، أمجنونٌ أنت؟» ثُمَّ أخذتْ بيدي لِتُساعِدَني على النهوض.

– «لا، لَسْتُ مجنوناً، ولكنني نصفُ نائم.»

– «اذْهَبْ من هنا، أرجوكَ! هذا إذا كنتَ تَحْرِصُ على حياتك... سَيَراكَ الحُرَّاسُ، أسرع... سَأُساعِدُك على الاختفاء يا سيد «ريد»..»

أَجَبْتُها بشيءٍ من الثقة: «لن أَتَزَحْزَحَ من مكاني إلاَّ إذا ناديتِني «جون»...»

– «لكَ هذا يا... «جون». ولكنْ أرجو أن تُسرِعَ إنقاذاً لحياتكَ.»

وبسرعة كبيرة، أخذتني إلى المخبأ الذي بين الصخور.. ومرّةً أُخرى رأيتُ الفُتحةَ بين الصخور، أعني الفتحة التي هربتُ بواسطتها مُنْذُ

سبع سنوات. وكانت هناكَ أدراجٌ محفورةٌ في الصخر، وإلى أسفل كانت نباتاتٌ مُلْتَفَّةُ الأغصان. وأزاحت «لورنا» هذه النباتات إلى جهةٍ واحدة، وأَرَتْني طريقاً ضَيِّقاً عَبْرَ الصخور.

تبعتُها بِقَدْر استطاعتي. وكنتُ أصطدمُ بالصخر على الجانِبَيْن نظراً لضخامة جِسْمي. وكانت تضحكُ لذلك، الأمر الذي أغضبني بعضَ الشيء. وَوَصَلْنا سريعاً إلى غُرْفَةٍ صغيرةٍ، تُحيط بها الصخورُ من جانبيها، مفتوحة في سقفها. وبينما كنتُ أنظر إلى السماء، متأمِّلاً صفاءها، قالت «لورنا» وهي تضحك:

– «وأين البيضُ الطازجُ الذي وعدتَني به يا سَيِّد «ريد»؟ هل توقَّفَتْ دجاجتُكم عن الإباضة؟»

ظَنَنْتُ أنني نَسيتُ إحضارَ البيضِ الطازج. غير أنني كنتُ قد احتفظتُ بالبيضِ في داخل قُبَّعَتي، فأعطيتُها إياه قائلاً: «كان باستطاعتي إحضارُ المزيد، ولكني خشيتُ أن ينكسرَ بعضُها.»

ما إن رأت « لورنا » البيضَ حتى أَجْهَشَتْ بالبكاء. وظننتُ لِتوّي أنني قد فعلتُ ما يُؤْذيها، ولكنها قالت: « لم أرَ حناناً كهذا في حياتي. لا أَحَدَ هنا يعرفُ كيفَ يَتصرّفُ بِحَنان. »

جلسنا على الصخور، وأخذتْ « لورنا » تُحَدِّثُني عن حياتها. قالت:

– « هناكَ شخصان يُسَاعِدانني في حياتي. أَحَدُهُمَا جَدّي « السير إنسور دُون »، والآخرُ هو المُسْتَشَارُ الذي يطلب « الدونز » رأيَه في كلِّ ما يعملون. إن جَدّي رَجُلٌ فَخُورٌ بنفسِه إلى حَدٍّ بعيد. ويبدو أنه يَعْرِفُ الخَطأَ مِنَ الصَّوَاب، ولكنه لا يُفكِّرُ كثيراً في هذا. أمَّا المُسْتَشَارُ، فهو يَتَكَلَّمُ لِمُجَرَّدِ أنّه يُحِبُّ الكلام. »

ثُمَّ اسْتَطْرَدَتْ « لورنا » قائلةً:

– « مُنْذُ مَوْتِ عَمَّتي « سابينا »، لم يَعُدْ لي مَنْ أُكَلِّمُه. عندنا وادٍ جميل هنا، وأنا أُحِبُّ الهدوءَ

والقراءة. ولكن، للأسف، كلُّ ما حولي سَرِقةٌ وَسُكْرٌ وكلامٌ قبيح. كثيراً ما ينادونني « ملكة » قائلين إن الوادي سيُصبحُ ملكي. غير أني لا أشعرُ بالانتماء إلى هؤلاء الناس، فأنا أَكْرَهُ طريقةَ عَيْشِهم. »

تَوَقَّفَتْ « لورنا » قليلاً عن الكلام، ثم تَابَعَتْ:

– « أمَّا ابنُ المُسْتَشَار، واسمُه « كارفر دُون »، فيريدُ أن يتزوّجَني. إنه أقوى رجال « الدونز » وأشْجَعُهُم، ولكنه في الوقتِ نفسِه أكثرُهُم فظاظةً وقسوة. أنا لا أُحبُّه، ولكنه قد يُرْغِمُني على الزَّواج. وكثيراً ما يجيئني بالجواهر التي سرقها من الناس لِيُقَدِّمَها لي كهدية. »

لاحظتْ « لورنا » من عَيْنَيَّ أنني قد سَمِعْتُ بِـ « كارفر دُون » هذا. فقد علا الدَّمُ وجهي، وانتابني غضبٌ شديدٌ، عندما سمعتُ اسمَه وعَرَفْتُ أنه يريد « لورنا » زوجةً له. وكم تمنيتُ أن أكونَ قد أحضرتُ بُندقيّتي معي.

وتابعتْ « لورنا » حديثَها قائلة:

– « كانت عَمَّتي « سابينا » حنونةً جداً، وقد علّمتني كلَّ الأشياء التي أحتاجُ إليها. لقد ماتت منذ سنةٍ تقريباً. والآنَ لا أصدقاءَ لي أُحَدِّثُهم إلاَّ خادمتي الصغيرة، واسمها « غويني كارفكس ». إنها فتاةٌ صغيرةٌ وَجَدْنَاها قُرْبَ التِّلال، وقد شارفتْ على الموت. وكان أبوها قد خرجَ يوماً ما من منزله ولم يَعُدْ. إنها قبيحةُ المنظرِ، ولا يُحِبُّ الرِّجالُ أن ينظروا إليها لذلكَ. وهي كثيرةُ التَّنَقُّلِ، والحُرَّاسُ يعرفونها ولا يَعْتَرِضُونها أبداً. »

– « لقد حدث لي شيءٌ مُرِيعٌ في شهر تَمُّوز الماضي. ما زلتُ أَذْكُرُ ذلك، فأشعر بالخوف. كنتُ ذاهبةً إلى البيت من هذا المكان عندما خرج رَجُلٌ من خَلْفِ إحدى الأشجار. كان يرتدي لباساً جميلاً مصنوعاً من الحرير الأخضر والأحمر، كما كان يَتَقَلَّدُ سيفاً. وكَلَّمَني قائلاً: « أنا اللورد « آلان براندير ».. » لقد كلّفَتْني الحكومةُ السَّهَرَ عليكِ

والاعتناءَ بكِ حتى تبلغي الحاديةَ والعشرين من العمر.. والدي كان أخَ والدَتِكَ، وقد جعلوني وَصِيًّا عليك. »

– « أنتَ الوصيُّ عليّ؟ » قلتُ ضاحكةً: « أنت لا تكاد تكون أكبر مني. »

– « قد يكون هذا صحيحاً. ولكنني أكبرُ وأقوى مِمَّا أبدو. إن باستطاعتي أن أُحَطِّمَ أيَّ رَجُلٍ من « الدونز » يحاولُ الاعتداء عليّ. »

– « لا تتكلمْ بصوتٍ مرتفع، فقد يسمعونكَ. عليكَ أن تَنْصَرِفَ. »

– « يا ابنةَ عمتي العزيزة. أعطِني وردةً واحدة أَتَذَكَّرُكِ بها. سأرجع قريباً. »

وتابَعَتْ لورنا وهي تَقُصُّ عليّ ما حدث بينها وبين هذا الشابِّ. قالت:

– « وفجأةً ظهر « كارفر دُون » وصاح بالشابِّ قائلاً:



- « لَنْ تأخذَ منها وردةً أيُّها الوَقح . »

ثُمَّ قفز « كارفر » على الشابِّ، ورفعه كأنه طفلٌ ورمى به أرضاً، ثم انقَضَّ عليه كالوحش. وانتهى الأمر. فقد كنت أعْلَمُ أنه قتل الشابَّ، ومنذ ذلك اليومِ لم يعرف هذا الوادي معنى الفرح. كلُّ ما أعرفُه هو الحزنُ والخوف... »

عندما أنهتْ « لورنا » قِصَّتَها هذه كان المساءُ قد بدأ يهبط.

قالت متنبهةً: « سيأتي « الدونز ».. عليكَ أن تذهبَ الآن. لَنْ تَرْجِعَ قبلَ مُضِيّ شهر كامل. »

- « ولكنكِ قَدْ تحتاجين لي قبلَ هذا الوقت. »

- « إذا احْتَجْتُ إليكَ سأضعُ قطعةَ قماش سوداءَ عند الصخرة التي تعرفها في تلك الهضبة. »

قالت هذا وأسرعَتْ مُنْصَرِفَةً، ومضَيْتُ أنا في سبيلي.

رسالة من « لندن »

اقتربَ شَهْرُ الانتظار من نهايتِه. كنتُ كلَّ يومٍ أَنْظُرُ إلى الحَجَرِ الذي قالت لي « لورنا » إنها ستضعُ عنده قطعَةَ قماشٍ سوداءَ إن احتاجَتْني. وكلَّ يومٍ كانتْ أفكاري تتَّجهُ نحو « لورنا دُون ». وكنت أخشى أن يَسْبِقَني إليها رجلٌ أرفعُ مني شأناً ومنزلةً، فأخسرَ ما أتمناه.

وفي يوم من الأيامِ كُنْتُ قد قَدَّمْتُ الطعامَ للجياد، وعزمتُ على دخول البيت، وإذْ بي أرى رَجُلاً غريباً قادماً على حصانه من جهة النهر. ظننته أحدَ المسافرين. لكنه تقدَّم نَحْوَ بيتنا وتوقّف، ثم رفع شيئاً كان بيده، وصاح بأعلى صوته وقد رآني: « باسم الملك. تعالَ أيها الفتى! » استجبتُ لطلبه وتقدَّمتُ نحوَه بِحَذَر شديد.

سألني: « أأنتَ « جون ريد »؟.. »



– « نعم يا سيّدي. هذه مزرعةُ « ريد ». تفضَّلَ بالنزول فَلَعَلَّكَ جائعٌ فنُطْعِمَكَ شيئاً من طعامنا. »

كان الرَّجُلُ في حوالى الأربعينَ منَ العمر. كان وجهُه صغيراً وخشِناً، وكانت عيناه شديدتي التوقُّد.

ناديتُ أُختي « آني » قائلاً: « قد جاءنا ضيفٌ للعشاء. هَلاَّ حضَّرتِ لنا طعاماً؟ »

وقال الرَّجُلُ: « إني جائعٌ حَقًّا، غير أني لنْ آكُلَ أو أَشْرَبَ قبلَ أن أرى « جون ريد » بعينيّ وأَلْمِسَه بيدي. »

أجبتُه على الفور: « لقد فعلتَ هذا يا سيّدي! »

فقال وهو يتنفَّسُ الصُّعداء: « اسمي جيرمي ستيكلز »، خادمُ مولايَ الملك. إني أُعطيكَ هذا الأمرَ باسم سيّدي الملك. »

ومدَّ يَدَهُ وسَلَّمَني رسالةً تأمرني بالتوجّه إلى « لندن » لمقابلة القاضي المَلَكيّ وإخبارِه بكُلّ ما

أعرفه عن « الدونز ».

انتظرتُ خمسةَ أيام على أمل أن تبعثَ « لورنا دُون » في طلبي. ولما لم تفعلْ ذلكَ قرَّرتُ الذهابَ إلى « لندن » بصحبة « جيرمي ستيكلز. »

أمامَ المحكمة

كان السَّفَرُ إلى « لندن » في تلك الأيام أمراً صعباً ومحفوفاً بالمخاطر.

وصلنا إلى « بورلوك » في العشاء. وبِتنا في بيتِ أحد أقرباءِ أُمي في « دانستر ». وفي الصباح تابعنا رحلتَنا فوصلنا إلى « بريدج ووتر »، وهكذا يوماً بعد يوم حتى وصلنا أخيراً إلى « لندن ».

لم أكُنْ أُحِبُّ « لنـدن »، فشوارعُها قَذِرَةٌ وضاجَّةٌ، وكلُّ ما فيها يعجُّ بالناس. كنتُ أُحِبُّ رغمَ ذلك، نهر « التايمز »، والكنيسةَ الكبيرةَ وقاعةَ « وستمنستر ».

انتظرتُ في « لندن » حوالى الشهرين، حتى نَفَدَ ما كنتُ قد حَمَلْتُهُ من مال. كنتُ أَذْهَبُ مِراراً إلى المَحاكِمِ دونَ أنْ أَجِدَ مَنْ يُساعِدُني. وفي أحد الأيام، وبينما كنتُ أنتظر في قاعة إحدى المَحاكِمِ،

تَقَدَّمَ مني رجلٌ وأخذني إلى جانب هادىء من القاعة.

قال: « كيف أمّك العزيزة يا « جون »؟ »

فأجبتُ: « لم أَرَها منذ شهرين. »

كان هذا الرَّجُلُ يَدَّعي أنه يَعْرِفُ عائلتي كلَّها. وعلى أيةِ حال، أخبرتُه بالمشاكلِ التي صادَفَتْني خلالَ إقامتي في « لندن ». وأعْلَمْتُهُ أنَّ كلَّ نقودي قَدْ نَفَدَتْ، وأني لا أدري ما أفعلُ. وبعد أن أنهيتُ كلامي، قال لي إنَّ نقودي التي أنْفَقْتُها في الطَّعام والشَّراب يجب أن تُعيدَها الحكومةُ إليّ. وقال أيضاً إنّ عليَّ أن أَطْلُبَ مقابلةَ القاضي الذي طلب حضوري إلى « لندن ».

شَكَرْتُ الرَّجُلَ وهَمَمْتُ بالانصراف، فأمسكني من يدي قائلاً: « يجبُ أن تَدْفَعَ لِيَ المالَ مُقابلَ النَّصائحِ التي زَوَّدْتُكَ بها. عليكَ أن تدفعَ لي جُنيهين. »

انتابني الخوفُ أوّلاً، لأنني لم أكُنْ أملك المالَ الذي طلبه. وقلت: «ولكن يا سيّدي، لقد كُنّا نتحدّثُ حديثاً وُدّياً، وأنتَ سألتني عن أُمي.»

أجابني الرجلُ على الفور: «أوَتظنُّ أنَّ عندي الوقتَ الكافيَ للأحاديثِ الوُدِّيّة؟! أنا رَجلٌ كثيرُ المشاغل. هيّا يا «جون ريد»، أعطِني الجنيهين!»

عندئذٍ فَقَدْتُ صوابي، وقلتُ له بغضب: «حسناً. أنتَ تقولُ لي إن الحكومةَ ستدفع لي نفقاتي. إذن، تعالَ معي إلى القاضي، وسأدفعُ لك الجنيهين عنده.» قلتُ هذا، وأمسكتُ بذراعه، وأخذتُ أَشُدُّهُ إلى غرفةِ القاضي.

ولَمّا عَلِمَ أني قد أُرغِمُه على الدُّخُولِ إلى غرفةِ القاضي هلع هلعاً شديداً، وأخرج من جيبه قِطْعَتَيْن ذهبيّتين فوضعها في يدي وفرَّ هارباً.

وصادَفَ حينئذٍ خُرُوجُ أحدِ المُسْتَكْتَبِين من غُرفة القاضي، فأَمَرَني بالدخول. وها قد وقفتُ

أمام أقوى رجلٍ في «إنكلترا»: القاضي «جيفريز».

لم تَكُنِ الغُرْفَةُ كبيرةً جداً. في آخِرِها وُضِعَتْ مِنَصَّةٌ ثلاثيةٌ يَجْلِسُ عندها ثلاثةُ رجال. كان الرَّجُلُ الذي في الوَسَطِ رَجُلاً قَوِيّاً وضخماً، وكانت عيناه تَقْدَحَان غضباً. كان هذا القاضي «جيفريز».

– «من أنتَ؟» سألني القاضي.

– «أنا «جون ريد» يا سيّدي. استدعاني «جيرمي ستيكلز» منذ حوالي شهرين إلى «لندن»، ولم أَسْتَطِعْ أَنْ أُقابِلَ سِيادَتَكَ. لقد نَفَدَتْ نُقُودِي، وأُرِيدُ العَوْدَةَ إلى البيت.»

سألني مُسْتَغرِباً: «أَلَمْ تُدْفعْ لكَ نفقاتُ رحلتِك وإقامتِك في المدينة؟»

– «كلاَّ يا سيدي.»

فنادى أَحَدَ المُوَظَّفِين، وقال له آمراً: «إدْفَعْ

لهذا الرَّجُلِ على الفور، وَدَعْهُ يأتي لِيَراني في الغد.»

رجعتُ إلى المحكمة في اليوم التالي، وأخذ القاضي «جيفريز» يَسْتَجْوِبُني.

- «هل في مناطقكم أشرارٌ يؤذون الناسَ ويقطعون الطُّرُق؟»

- «نعم يا سيّدي.»

- «ولماذا لا يحاربهم اللورد «فيكهالس»؟..» سألني القاضي.

- «إن «الدونز» رجالٌ أقوياء، ومعدنُهم صلب. وأحسبُ أنَّ اللوردَ «فيكهالس» يخافُهم بعضَ الشيء. وعددُهم يفوق الأربعين.»

- «أربعون!» صاح القاضي. «أربعون قاطع طريق! كم مضى على وجودهم هناك؟»

- «حوالى ثلاثين سنةً يا سيّدي.»

وقال القاضي وهو يُحَدِّقُ في وجهي: «أوَتعرف

أنَّ للورد «فيكهالس» صديقاً من «الدونز»؟»

فاجأني قولُه هذا، فقد كانت هذه الفكرةُ غريبةً عني، ولكنني رغمَ ذلك شعرتُ بأنه صادق.

- «يا «جون ريد»، إن عينيك تخبرانني بكلِّ ما أُريدُ أَنْ أَعْرِفَ دون أن تتكلَّمَ. أَعْرِفُ الآنَ أنكَ لم تكنْ تعرفُ ما أخبرتُك... هل رأيت قطُّ رجلاً يدعى «توم فاغوس»؟»

- «نعم يا سيّدي. لقد رأيتُه مِراراً، فهو ابنُ عمي.»

- «إنه رجل طيّبٌ... طبعاً، إنه لِصٌّ، ولكنه رغمَ ذلكَ رجلٌ طيبٌ معروفٌ بولائه للملك. أَخْبِرْني: هل يوجدُ في مناطقكم كلامٌ عن ثورةٍ يعتزم الناسُ القيامَ بها ضِدَّ الملك؟»

- «لا يا سيّدي! إننا جميعاً أُناسٌ طيّبون نخدمُ مَلِكَنا كما ينبغي لنا.»

- «هذا حسن» قال القاضي مُنْهِياً كلامَهُ. ثم

أردف: « إني أُحبُّك يا « جون ريد »، فأنت رجلٌ طيِّب. ابتعِد عن « الدونز » وعن اللورد « فيكهالس ». ثم إيّاكَ أن تبوحَ بما تَحَدَّثْنا به. سوف أُرْسِلُ لك أحدَ رجالي لإطْلاَعِكَ على سَيْرِ الأمور في المستقبل. أما الآنَ فبإمكانِكَ الانصراف. وتأكّدْ أنني سَأَذْكُرُك. »

الخوفُ يسيطرُ على « لورنا »

عُدْتُ وَحْدِي إلى « سومرست »، ولم تُصادِفْني أيّةُ مَتاعِبَ في الطريق. وأَدْهَشَني، عندما وَصَلْتُ، أني رأيتُ أُختي « آني » واقفةً على رأس الهضبةِ القريبةِ من منزلنا. قالت لي بعد ذلك إنها كانتْ تفعلُ ذلك كلَّ يومِ سَبْتٍ لأنها كانت واثقةً من أنني سأرجعُ في يوم سبت.

قَدَّمْتُ لأُمي ولأُختيَّ الهدايا التي أحضرتُها لهنّ من « لندن »، وفرحنَ بها شديدَ الفرح. وأَمْطَرْنني بأسئلتهنّ حول « لندن » والحياة فيها.

في اليوم التالي، وَجَدْتُني أُفكِّرُ في « لورنا دُون ». وقَرَّرْتُ أَنْ أذهَبَ لأَتَفَقَّدَ الحجَرَ الأبيضَ، ولَمَّا وصلتُ إليه وجدتُه مُغَطًّى بقطعة قماشٍ سوداء. ومعنى هذا أن « لورنا » بِحَاجَةٍ إِلَيَّ. لم أَعْرِفِ المُدَّةَ التي انقضَتْ على وَضْعِ « لورنا » لِقِطْعَةِ

القِمَـاشِ، ولكنّـني لم أنتظرْ دَقيقةً واحدة، فانطلقتُ أقصدُ الوادي لأراها.

انتظرتُ، وطـال انتظاري، وآنَسَني صوتُ العصافيرِ ومنظرُ الغروب.

وأخيراً، ظهرتْ «لورنا» بجَمَالِها المُتألِّق. ركضتُ نَحْوَها، ولم أَحْسِبْ حساباً للمخاطر التي قد تنشأ عن هذا. وكان الخوفُ بادِياً عليها.

سأِلتُها فوراً: «هل أنتِ بحاجة إلي؟»

– «نعم، ولكنهُ قد مضى شهران على اليوم الذي وَضَعْتُ فيه العلامة. تعالَ من هنا إلى الظلِّ.»

ومشيتُ معها إلى مكانِها السِّرّيِّ.

– «لِمَ تركتَني يا «جون»؟ وضعْتُ العلامةَ ولكنّك لم تَسْتَجِبْ لي. لماذا فعلتَ ذلك؟ لقد تركتني وحدي يفعلُ الناسُ بي ما يشاءون. إنهم يحاولونَ إرغامي على الزَّوَاج من «كارفر دُون»، كما أنَّ

«تشارلي دُون» يُلاحِقُني ويُزْعِجُني. إنَّ جدّي خائفٌ من أن يتقاتلَ «كارفر» و«تشارلي» من أجلي.»

لن أُخبِرَكُم بالكلمات التي قُلْتُها لها بعد ذلك، ولن أُفصِّلَ لكم الوعدَ الذي قطعتُه لها على نفسي ألاَّ أَتركَها أبداً. أعطيتُها هديةً صغيرة كنتُ قد حملتها لها من «لندن». ولما أخبَرتْني أنها غفـرَتْ لي تأَخُّرِي، اتَّفَقْنا على طريقةٍ جديدةٍ سَتَعْتَمِدُها إذا أرادتْ أن تَتَّصِلَ بي.

– «اذهـب الآن يا «جون»، فأُمُّك في انتظارك. بإمكانك أنْ تأتِيَ لتراني بعد شهرين من الزمن.» ثم ضحكتْ وانصرفتْ.

« كارفر » يحاول قتلي ؟!

عندما عُدت إلى البيت وجدتُ عُمَّالَ المزرعة يتهيأون لِقَطْعِ بَعْضِ الأعشاب والنباتات.

ساعدتُ العُمَّالَ في مُهِمَّتِهم بعضَ الوقت، وصادفَ مجيءُ الخال « روبن » مع حفيدته « روث هاكباك ». وكانت أُمِّي تُريدُني أن أتزوّجَ « روث » لأنها الوريثةُ الوحيدةُ لجدّها « روبن ».

بدا الخالُ « روبن » مُنْهَكاً خلالَ إقامته بيننا. وكان يذهب في كلِّ يومٍ على ظَهْرِ حصانه إلى التِّلال. وسَرَتْ أخبارٌ غريبةٌ عن عدم رضا بعض الناس عن الملك، وقالت بعضُ هذه الأخبارِ إنِ الناسَ يتهيأون لمحاربته. وتذكرتُ ما قاله لي القاضي « جيفريز »، ولم أُطْلِعْ أحداً على ذلك، ولكنّي كنتُ خائفاً جِدًّا مما قد يَحْدُث.

وفي إحدى الأُمسيات وجدتُ أختي « آني »

جالسةً وحدَها قُربَ قَبْرِ والدي. كنتُ أعرفُ أنها تُفكِّرُ في « توم فاغوس » وتتمنى عَوْدَتَهُ لتراه. حَدَّثْتُها عن « توم » ونصحتُها بأن تَلْزَمَ جانبَ الحَذَرِ لأنّه قاطعُ طريق.

أَجابَتْني بقولها: « ولكنك أنت تُحبُّ واحدةً من « الدونز »! أليسَ هؤلاءِ قُطَّاعَ طُرُقٍ أيضاً؟ »

فاجأني قولُها هذا، فسألتُها: « كيف عَرَفْتِ ذلكَ؟ »

– « لم أكن أعرف. ولكنني ظننتُ ذلك مُمْكِناً، فقلتُ ما قلتُ، وأنا الآن متأكدةٌ من هذا الشيء. »

عند ذلك أخبرتُها بقصةِ حبي مع « لورنا ».

لم نكنْ نعرفُ ما يفعلُه الخال « روبن » عند التلال. وغادرَنا بعد عَشَرَةِ أيّامٍ، تاركاً « روث » عندنا لبعض الوقت. وكانتْ أُمِّي كثيراً ما تُحدِّثُني عن « روث ». أمّا أنا، فكنت أخشى من أن أُصارِحَها بِحُبِّي لِـ « لورنا دُون »، لأن « الدونز »

كانوا قد قتلوا والدي.

كانت «لورنا» قد جَعَلَتْني أَقْطَعُ لها عَهْداً بعدم زيارتِها قبلَ شهرين من انقضاء زيارتي الأخيرة. وما إن انتهتِ الأسابيعُ الثمانيةُ حتى انطلقتُ إلى وادي «الدونز». ولكنني في تلك المَرَّةِ لم أستطعْ أن أجِدَها رغمَ أنني انتظرتُها فترةً طويلة.

وحاولتُ ثانيةً. حملتُ معي بعضَ السمكِ والبيضِ، ووضعْتُها على العشبِ قُرْبَ الماء. وبينما كنتُ أَفعلُ ذلك، شاهدتُ رجلاً يمشي في الوادي على مهل، ودنا الرجلُ من المكان الذي كنتُ فيه. كان الرجلُ «كارفر دُون» ذا الوجه الذي يقطرُ قسوةً وشَرّاً. نعم، هذا هو الرجلُ الذي كان يريد أن يتزوَّجَ «لورنا».

ولَمَحَ «كارفر» السَّمَكَ والبَيْضَ حيث وضعتُها، فَصَرَخَ قائلاً: «إنه «تشارلي» بلا شَكّ.. إنه يضعُ الهدايا لـ «لورنا» في هذا المكان.»

ثم أخذَ السمَكَ والبيضَ وانصرف. وبقيتُ أنتظرُ، ولكنَّ «لورنا» لم تَحْضَرْ. وأَفسدَ هذا عليَّ يومي.

ورجعتُ في يومٍ آخَرَ، ووقفتُ أنتظرُ قُرْبَ غرفةِ «لورنا» السرِّية. وفجأةً سمعتُ صَوْتَ طَلقٍ ناريّ. اخترقتِ الرصاصةُ قُبَّعتي وأطارتْها عن رأسي، فسقطتْ في الماء وانجرفتْ مع التيار واختبأتُ بسرعةٍ خلفَ الصخور.

وخرج «كارفر» من المخبأ، وركض إلى الماء. كان واقفاً على بُعْدِ خُطُواتٍ مني.

وسمعتُه يقول: «هل قتلتُك يا «تشارلي»؟! إنها المَرَّةُ الثالثةُ التي أُطلِقُ عليكَ النارَ فيها.» وانصرف ضاحكاً، وضحكتُ أنا وقلتُ في نفسي: «لعلّ دوري يجيء في يومٍ من الأيام.»

في مساء ذلك اليومِ، جاءتْ خادمتُنا «بيتي»: وأخذتْ تقومُ بحركاتٍ غريبةٍ، وكأنّها تُريدُ أن

تكلّمَني دونَ أن يعرفَ ذلكَ أحد. ولما ذهبتُ ناحيتَها، همستْ في أُذُني: «لورنا دُون».

وتبعتُ «بيتي» بسُرعة إلى خارج المنزل. وقالتْ لي: «عليّ أن أُبْلِغَكَ شيئاً عن «لورنا دُون». لقد جاءت خادمتُها منذ قليل وأخبرتْني بذلك. لن تستطيعَ «لورنا» أن تجيءَ هذا المساء، ولكنها تريدُك أن تذهبَ إليها غداً صباحاً.»

وأخيراً، صارحتُ أُمّي

كما تتوقعون، ذهبتُ إلى وادي «الدونز» في صباحِ اليومِ التالي.

رأتْني «لورنا» وركضتْ لتُلاقِيَني.

استقبلَتْني بقولِها: «جئتَ أخيراً. لم أستطعْ إبلاغَكَ الأمر. لقد جعلوني سجينةً في بَيْتي كُلَّ مساء.»

تبعتُها إلى المخبأ السِّرِّيِّ في الصخور. وشعرتُ بقدوم اللحظةِ الحاسمةِ في حياتي، إذ كنتُ أتوقَّعُ أن تقولَ لي إنها تحبُّني.

أخذتْ تحدِّثُني عن المَتَاعِبِ التي تُوَاجِهُها. واستمعتُ بعضَ الوقتِ، ثم قاطَعْتُها قائلاً: «لم أجِئْ لأَسْمَعَ هذا الكلام.»

- «إن كنتَ قد جئتَ لتسألَني شيئاً ما، فلِمَ

تنتظر؟ هَيَّا اسألني!» قالت هذا مُدَّعِيَةً أنها لم تفهمْ قصدي.»

سألتُها: «هل تحبّينني؟»

- «نعم، أُحِبُّكَ! ولكن ما الفائدة؟ إنّ حياتي في خطر، ولا أستطيعُ أن أتزوَّجك خوفاً عليكَ من القتل.»

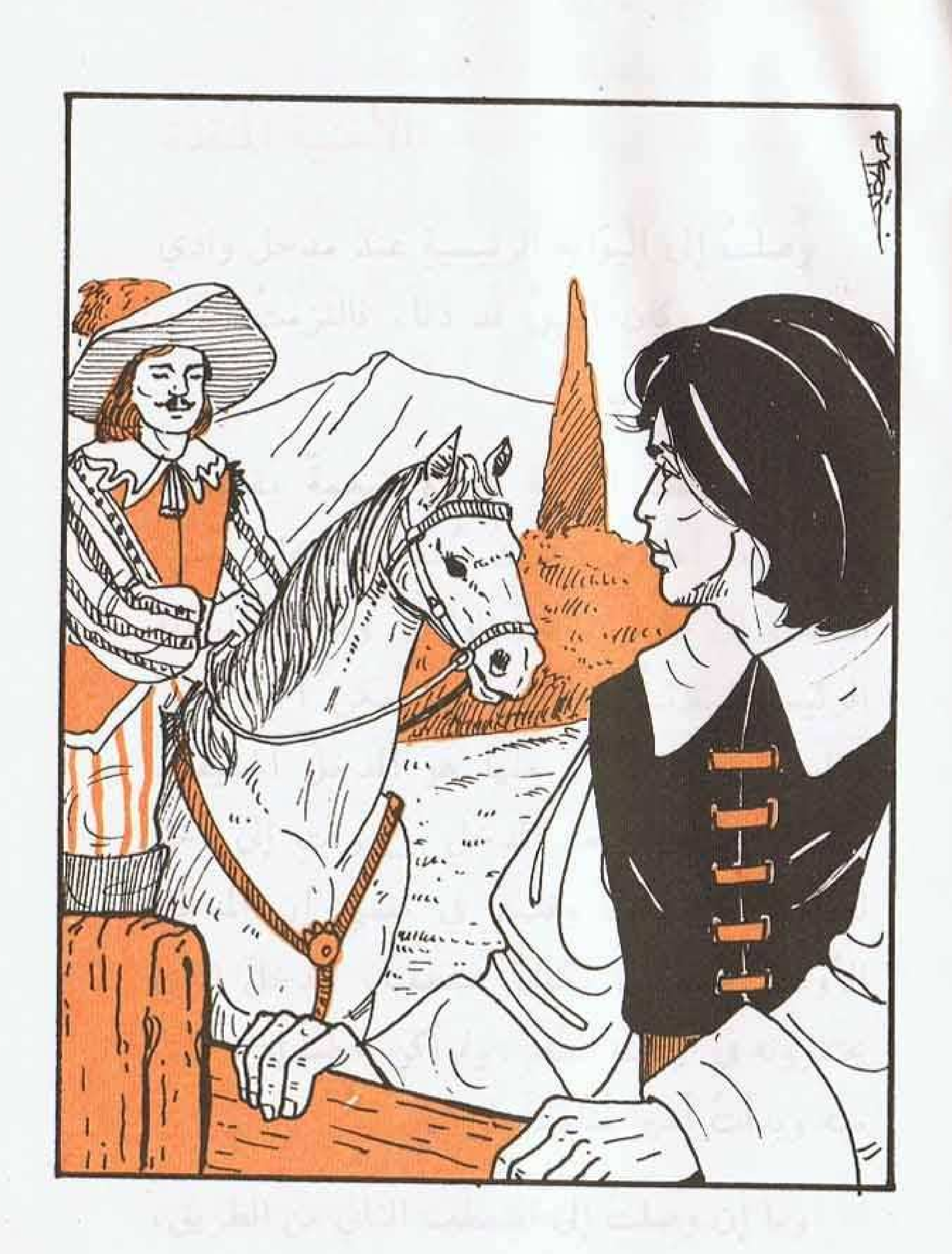
ذهبتُ إلى البيت بعد ذلك. وكان «توم فاغوس» في بيتنا، فقد جاء ليُخْبِرَ أمي عن حبِّه لأختي «آني». ولما علمتُ بذلك، صارحتُ أُمي بحبي لِـ «لورنا دُون.».

دوق «مونماوث» يستعدُّ لمحاربة الملك

في يومٍ من الأيام جاء «جيرمي ستيكلز» إلى بيتنا، وأخذني إلى حقلٍ قريب، ثم تلفّت من حولِه، ولَـمَّا تَيَقَّنَ أنه لا يوجدُ أحدٌ يسمعُنا، قال لي:

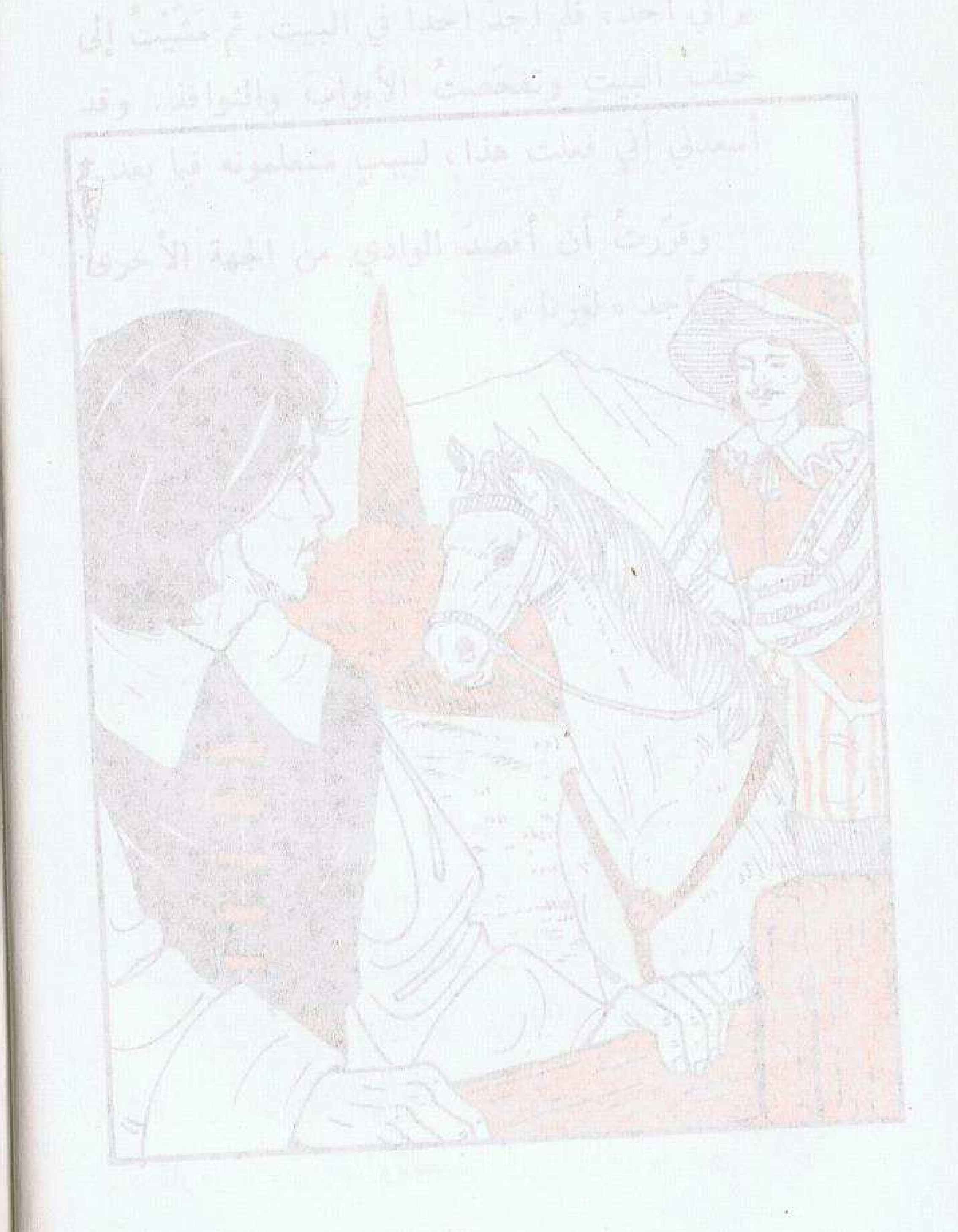
- «أُريدُك يا «جون» أن تَعْرِفَ سببَ زيارتي هذه. لقد سبقَ أن حَدَّثَكَ القاضي «جيفريز». ، رَجُلٌ اسمُه دوق «مونماوث» يَجْمَعُ الرجالَ من حولِه لِمُقَاتلةِ الملك. وعليكَ أنتَ أن تُقاتِلَ إلى جانبِ الملك ضِدَّه.»

كانت «لورنا» عادةً تُرْسِلُ إليَّ بِمَا تريد. ولكنها انقطعت عن الاتصال بي، فَخِفْتُ لذلك خوفاً شديداً. وازدادَ خَوفي على تعاقُبِ الأيّام. ذهبتُ إلى الوادي ثلاثَ مرّات لأراها، ولم أُوَفَّقْ في ذلك رغمَ أنني انتظرتُها طويلاً في كلِّ مَرَّة. وفي إحدى المرّات تَجرَّأتُ على الذهابِ إلى بيت «كارفر دُون»، وتنصَّتُّ قربَ البابِ دونَ أن



يراني أحدٌ، فلم أجدْ أحداً في البيت. ثم مَشَيْتُ إلى خلفِ البيتِ وتفحّصتُ الأبوابَ والنوافذ. وقد أسعدني أني فعلت هذا، لسببٍ ستعلمونه فيما بعد.

وقرّرتُ أن أقصدَ الوادي من الجهة الأخرى لَعَلِّي أجد «لورنا».



الأُغنية المُنْقِذَة

وصلتُ إلى البوّابة الرئيسيةِ عند مدخل وادي « الدونز ». وكان الليلُ قد دنا، فالتزمتُ الحَذَرَ الشَّديدَ في تَحَرُّكَاتي.

رأيتُ عند البوابةِ شجرةً ضخمةً مقطوعةً، كانوا قد أعدّوها بحيثُ يُسقطونَها على رأسِ الأعداء إن حاولوا دخولَ الوادي. وكان في البوابةِ الرئيسيةِ ثلاثةُ مداخِلَ، ولم يكن أحدٌ غيرُ « الدونز » يعرفُ أيًّا منها هو المدخلُ الحقيقي. وكانوا يغيِّرون فُتحةَ المدخلِ من وقتٍ إلى آخرَ تضليلاً للأعداء. وقلتُ في نفسي إن المدخلَ الأوسط يجبُ أن يكونَ، منطقياً، المدخلَ الذي يختارونه في أوقاتِ السِّلْمِ. ولم أكن مخطئاً إذ دخلتُ منه وبدأتُ أسيرُ مُتَلَمِّساً طريقي.

وما إن وصلتُ إلى المنعطف الثاني من الطريق،

حتى رأيتُ رجلينِ من « الدونز » يحرسان المكانَ، ومع كلٍّ منهما بندقية. كانا يجلسان على الأَرض، ويلعبانِ لُعبةً مُسَلِّيَةً. كان أحدُهم « تشارلي دُون »، والآخرُ « فِلْبس ». وبعدَ قليل، نَشِب بينهما عِرَاكٌ إثْرَ جِـدَالٍ كلاميٍّ. ورمـى « تشارلي » رفيقـه بالمِصباحِ الزجاجي، فانكسر. عندئذٍ، قال له « فِلْبس » : « عليك أن تُحْضِرَ مِصباحاً آخر من منزل « كارفر ».. »

وذهب « تشارلي » مارًّا بقربي، حتى إن ثوبه لامَسَ يدي. وكان يترنّم بأغنية غريبة. أما أنا فتبعته، مارًّا ببيت « السير إنْسور »، حتى وَصَلْنا إلى منزل « كارفر ». كان البابُ مفتوحاً، وكان « كارفر » واقفاً عند الباب:

– « ماذا تريد في هذا الوقتِ من الليل؟ »

– « أريدُ مِصباحاً جديداً، فقد وقع مصباحُنا وانكسر. »

تابعتُ سيري حتى وصلتُ إلى بيت « لورنا »، وكان في الطابق الأوّل فوق الأرض. ولم أستطعْ أن أرفعَ صوتي لأنني رأيت حارساً بالقرب من المكان. وأحسَّ بي الحارسُ فَهَبَّ من مكانه، وقال يخاطبني: « من أنت؟ أجِبْ، وإلا أطْلَقْتُ النار. واحد، اثنان، ثلاثة... »

كانت بُنْدُقِيَّتُهُ مُصَوَّبَةً نَحْوِي. وأخذتُ أُغَنّي الأُغْنِيَةَ الغَربيةَ التي سَمِعْتُها من « تشارلي ». لا أعرف لماذا فعلتُ ذلك، ولكن الرجلَ عندما سمعها قال: « لا بأس »، ثم عاد إلى مكانه. وعرفتُ في وقتٍ لاحقٍ أن هذه الأُغنيةَ هي أُغنية « كارفر دُون » السِّرِّيَّة التي كان يُعَرِّفُ بها الناسُ عن أنفسهم. لقد ظنَّ الحارس أنني « كارفر دُون » نفسُه.

فَتَحَتْ « لورنا » نافذَتَها. حيَّتْني بنعومةٍ، ثم أخبرَتْني بما حدث، وقالت لي عن السبب الذي منعها من الاتصال بي.

قالـت: « إن جدّي « السير إنسور » مريضٌ

جداً، وقد لا يعيش طويلاً. لقد أصبح المستشار « كارفر دُون » سيّدَ الوادي، ولم أَعُدْ أجرُؤ على الخروج من البيت. أما خادمتي « غويني » فقد حَظَّرُوا عليها مغادرةَ الوادي. »

– « وكيف لي أن أَعْلَمَ إنِ احْتَجْتِ إليّ. علينا أن نَتَّفِقَ على علامةٍ مُعَيَّنَة. »

فكّرتْ طويلاً ثم قالت: « انظرْ إلى تلك الشجرةِ التي فيها سبعةُ أعشاش. مِنَ الممكن أن تراها من خارج الوادي. باستطاعةِ « غويني » أن تتسلَّقَ هذه الشجرةَ بسهولة. فإذا شعرتُ بالخطر سأجعلُها تنزعُ واحداً مِن هذه الأعشاش. فإن رأيتَ ستةَ أعشاشٍ فَحَسْبَ على هذه الشجرةِ، فاعْلَمْ أنَّ « كارفر دُون » قد أَخَذَني بالقُوَّة! »

ودّعتُها عندئذٍ وانصرفتُ إلى بيتنا.

حياة « جيرمي » في خطر

كان « جيرمي ستيكلز » مُقيماً معنا. كان غريبَ الأطوار، إذ كان يَخْرُجُ في كلِّ صباحٍ ولا يعودُ حتى ساعةٍ مُتأَخِّرةٍ من الليل. ولم يكنْ أحدٌ يَعْلَمُ ما يفعل.

وجاء « توم فاغوس » لزيارتنا في يومٍ من الأيّام لِيُحَدِّثَ أُختي « آني ». وذهبتُ أَمْشي وَحْدِي مُفَكِّراً بـ « لورنا »، وبحبّي لها، وبِحُبِّ « توم » لأختي. وشعرتُ بصعوبةِ حُبِّنا وبسهولةِ حُبِّهما، لأنه لم توجدْ دونهما عوائق. وتوجّهتُ إلى الغابةِ القريبةِ من بيتِنا، وبدأتُ أقطعُ بعضَ الأخشابِ لنستعملَها وَقوداً. وكانتِ الغابةُ إلى جانبِ نهرٍ صغير.

وبينما كنتُ أقطعُ الأخشابَ، رأيتُ ثلاثةَ رجالٍ عند الطَّرَفِ الآخَرِ من النهر. ... عن عَدُوٍّ ما. كانوا من « الدونز ». خبأت نفسي بسرعة، وإذْ بالرجال يَقْتَرِبون. وسمعتُ أَحَدَهم

يقول: « لقد كان أحدُهم يقطعُ الخشبَ هنا . » كان المتكلِّمُ « كارفر دُون ». أما الآخران فهما « تشارلي دُون » واللورد « فيكهالس ».

قال « تشارلي »: « لا أَحدَ في المكان. بإمكانِنا أن نَمْكُثَ هنا قُرْبَ المَمَرِّ الذي يسلكه « جيرمي ستيكلز » كلَّ يومٍ بعدَ الظهر . »

وقال اللورد « فيكهالس »: « سنكمن له هنا .. وستكون رحلتُه القادمة رحلتَه الأخيرة . »

لقد جاءوا لقتل « جيرمي ستيكلز ». عليَّ أن أذهبَ لتحذيره من ذلك. ذهبتُ بحذرٍ من الغابة، مُتَّجِهاً إلى المكانِ الذي كان « جيرمي » يقصدهُ عادةً في مثل هذا الوقت. أسرعتُ في الركض، ورافقني خوفٌ من سماعِ طلقاتٍ ناريةٍ يُطلقها الرجالُ الثلاثةُ على « جيرمي » قَبْلَ وصولي إليه. وأخيراً، وصلتُ إلى الهضبة التي يستطيعُ أن يرى المرءُ منهـا وادي « الدونز ». وفجـأةً ظهر « جيرمي » أمامي.

قال مُندهشاً: « هذا أنت؟! » ووضع بُنْدُقِيَّتَهُ جانباً.

– « لقد جِئتُ لأُنقذَ حياتَك. في الغابة ثلاثةٌ من « الدونز » كمنوا لَكَ ليقتلوك . »

– « فلينتظروا إذاً. ليس باستطاعتي الآنَ أن أجمعَ جنودي، كما أنني لا أستطيعُ أنا وأنت وحدنا التَّصَدِّي لهم. عليهم لذلك أن ينتظروا. معنى كلِّ هذا أن المواجهةَ مع « الدونز » ستقعُ في وقتٍ أقْرَبَ مِمّا كنا نتصوّر . »

مأزقٌ حرجٌ

في اليومِ التالي اصطحبني « جيرمي » إلى خارج المنزل، وأخبرني عن سبب حضوره، وعن المُهمَّةِ التي كان يقوم بها.

قال لي إن عدداً من الرجال كانوا غاضبين على الملك، وقد قرّروا محاربَتَهُ. كان هؤلاء في معظمهم من الطائشين والصغار، غير أنه انضمّ إليهم عدد من اللوردات كقادةٍ للتمرّد. وكان « الدونز » واللورد « فيكهالس » من ضِمْن القـادَةِ أيضاً. وكانت مُهِمَّةُ « جيرمي ستيكلز » استطلاعَ أَمرِ هؤلاءِ المُتَمَرِّدِين ومعرفةَ خُطَطِهِم وأَعدادِهم. وإلى جانب ذلك، كان عليه إعدادُ خُطَّةٍ لمحاربةِ « الدونز »، حتى يتمكّن جنودُ الملِك من قتلهم أو طردهم من الوادي.

ولـمَّا سَمِعْتُ بهذا قلتُ مستغرباً: « تقتلون كلَّ « الدونز »؟.. إن هذا لأمرٌ فظيعٌ. » ولم أكُنْ أُفكِّرُ طَبعاً إلاَّ بـ « لورنا ».

– « أتُفضِّلُ إذاً أَنْ تُسْرَقَ أَموالُك وأَغنامُك؟ أعتقد أنه سَيَسُرُّكَ موتُ « الدونز »، ولكنّك تبدو حزيناً. »

– « على أية حال لن تكونَ لي يدٌ في هذا الأمر، ولن أُساعِدَكُم في مُهمَّتِكُمْ، ولن أُقاتِـلَ « الدونز ».. »

وقال مستغرباً: « ألا تحاربُ الرجالَ الذين قتلوا والدَك؟! إن خالَك « روبن » معنا، وقد وعد بأن يتولّى قيادَةَ جنودِنا إلى وادي « الدونز ».. »

انتابني الخوفُ. كنتُ أخشى أن تُصابَ « لورنا » بمكروه. فلو حصل ذلك، ما عساني أفعل؟.

السير «إنسور» يستدعيني وهو يُحْتَضَر

صار الطقسُ بارداً، فَنَحْنُ الآنَ في أواسطِ كانون الأوَّل، وقد أَثْلَجَتْ أكثَرَ من مرة.

خرجتُ لأرى الأعشاشَ التي اتَّفَقْنا أنا و«لورنا» على جعلها علامةً بَيننا. نظرتُ جيداً فلم أرَ سوى ستةِ أعشاش. لقد أُخِذَ واحدٌ منها، ومعنى هذا أنَّ «لورنا» تحتاج إلي.

كان كَلْبِي معي، فربطتُ بِعُنُقِهِ رسالةً وَأَرْسَلْتُهُ إلى البيت. طلبتُ في الرسالة من أختي «آني» أن تُرسِلَ لي شيئاً من الطعام. وبسرعةٍ عاد الكلبُ، وبرقبته سَلَّةٌ مملوءةٌ بالطعام. ونبح الكلبُ، فنظرتُ إليه وإذْ بي أتبيّنُ شخصاً آتياً من بعيد. إنها «غويني» خادمةُ «لورنا».

– «تعالَ معي يا سيّدي! إنَّ السير «إنسور» يُحْتَضَرُ، ويريد أن يراك.»

– «يُريدُ أن يراني أنا؟»

– «نعم، فهو يريد أن يحدِّثَكَ قبلَ موتِه.»

أرسلتُ الكلبَ إلى البيت، وتبعتُ «غويني». ولما دَنَوْنا من منزل الكابتين، استوقَفَنا اثنان من «الدونز»، ولكنَّ «غويني» قالت لهما شيئاً لم أفهمْه، فسمحا لنا بالمرور.

وأخيراً، وصلنا إلى بيت السير «إنسور». فتحتْ لنا «لورنا» البابَ، وبادَرَتْني بالقول: «لا تخفلْ بما سيقولُ لك. لا تُجِبْهُ بشيءٍ، ولا تَخَفْ منه!»

وأوصلتني إلى غرفةٍ أُخرى كان السير «إنسور» يجلسُ فيها على كُرْسِيِّه. لم تَبْدُ عليه آثارُ الحياةِ إلا في عينيه اللتين كانتا مجمَّدتان باتجاهي.

– «إذاً أنتَ «جون ريد»؟»

– «نعم، أنا هو... أرجو أن تكونَ قد تَحسَّنْتَ!»

– « أتعرفُ أن « لورنا دُون » تَنْحَدِرُ من واحدةٍ من أقدمِ العائلاتِ الإنكليزيةِ وأَعْرَقِها؛ وأنتَ، أيّها المُزَارِعُ، تَرْغَبُ بالزواج منها! »

– « لم أكنْ أَعْلَمُ أنَّ عائلتَها قديمةٌ وعريقة... إن عائلةَ « ريد » قد أنتجت مُزارِعين ممتازين قبل أن يُنْتِجَ « الدونز » لُصُوصاً مُحْتَرِفين!! »

– « أتَعِدُني أن تنقطعَ عن رؤية « لورنا » وعن التَّحَدُّثِ معها؟ نادِها الآن! »

ودخلتُ إلى الغرفة المُجَاوِرَة حيث كانت « لورنا » تجلس، وأمسكتُ بيدها، ثم دخلنا إلى غرفة السير « إنسور ».

نظر إلينا، ويدانا متشابكتان، فقال: « إنكما أحمقان. »

وأَجَبْنا معاً: « إننا سعيدان. » وأضفتُ: « قد نكون أحمقَيْن، ولكننا سُعَداء بهذا. »

– « إذاً، استَمِرَّا في حمقكما. هذا ما أنصحُكما به. »

وأغمضَ عينيه، ورأيتُ يديه ترتخيان. وأحسستُ أنه كان يُحاولُ أن يَجِدَ شيئاً ما، ثم نظرتُ إلى حيثُ كانت يدُه فرأيتُ قلادةً جميلةً، أعطيتها لِـ « لورنا ».

قالَتْ بشيءٍ من الدَّهْشَة: « إنّها قلادتي. لقد كان جَدِّي يحتفظُ لي بها خوفاً من أن تُسْرَقَ. وهذا خاتَمِي إلى جانبها. »

وأَعْطَتْني القلادَةَ والخاتَمَ قائلةً: « ضَعِ الخاتَمَ في إصْبَعِك، واحْتَفِظْ بالقِلادةِ في مكانٍ أمينٍ، فهذا شيءٌ نستطيعُ أن نفعلَه بها. »

حَبْسٌ وتَجْويع

تساقط الثلجُ مراراً، وغطى الشوارعَ حتى إننا كنا نُضطرُّ إلى إزاحته عن أبواب بيوتنا لنخرجَ منها. وقد فقدْنا كثيراً من ماشيتنا بسبب كَثْرَةِ الثُّلوجِ.

وكُنَّا نَسْتَصعِبُ المَشْيَ في الثَّلْجِ لِشِدَّةِ نُعومَتِه. واقترحتْ عليّ «آني» – وكانت كثيرةَ الاطِّلاعِ، مُولَعَةً بالقراءة – أنْ أصنعَ لنفسي نَعْلَيْن خاصَّيْن، يَسْهُلُ المشيُ بهما على الثلج. وصنعتُهما بالفعل، وصِرتُ أستعملها في المشي على الثلج بسهولة.

وفي يومٍ من الأيّام، صعدتُ إلى رأسِ التلّةِ ونظرتُ إلى وادي «الدونز»، وكان كلُّ شيءٍ مغطًّى بالثلج. وبدأتُ أُفكِّرُ في «لورنا»، فهل هي غيرُ قادرةٍ على مغادرة البيت؟! وقلتُ لنفسي إن «الدونز» لا يخرجون في مثل هذا الطقس، ولذلك اعتزمتُ زيارتها.

وصلتُ إلى بيتها وناديتُها، فخرجتْ «غويني» تسأل: «مَنْ بالباب؟»

وأجبتُها، فطلبتْ مني أن أَضَعَ إصبعي في ثُقْبِ البابِ لتتأكَّدَ مني، وأردفَتْ تقول: «إن لم تكُنْ «جون ريد» فسأقطعُ إصْبَعَكَ.»

ضحكتُ، ومددتُ إصبعي في ثُقبِ الباب، فَفَتَحَتْهُ دونَ إبطاء.

دخلتُ وأنا أقول: «وما معنى هذا؟»

– «معناه أننا مُلازِمُون للبيت، وأنْ لا طعامَ لنا. ليتني أستطيعُ أن آكُلَكَ لأَسُدَّ بِكَ جوعي!»

وأَخْرَجْتُ قِطْعَةَ خُبْزٍ كانت معي، فتناوَلَتْها مني كالبَرْق والتهمتْها بوحشيّة.

دخلتُ إلى غرفة «لورنا»، وكانت تَقْبَعُ في كُرْسِيِّها مُغْمَضةَ العينين. أَعْطَيْتُها بعضَ الخُبْزِ والماء، ففتحتْ عينيها وبدأت تأكل.

ونظرتْ إلي، وقالتْ: «لم أتوقعْ أن أراكَ ثانيةً. كنتُ أعتقدُ أنني سأموتُ قبل رؤيتك، ودون أن تعرفَ بالأمر. لقد حَبَسَنَا «كارفر دُون» هنا، وقال إنه لن يُخرجَني قبل أن أعِدَهُ بالزواج.»

وكان معي شيءٌ آخرُ من الطعام، فقدَّمْتُهُ لها وجلستُ أُحَدِّثُهُمَا.

ثم قالت لورنا:

– «تعالَ إلى النافذة، وانظُرْ كيف يُشْعِلونَ النار. لقد جعلوا «كارفر» قائِدَهُمْ. وسيأكلون الليلةَ ويشربون على شرفه.»

وفكّرتُ في نفسي قائلاً: «ستُنير نارُهم الواديَ وسوف يَرَوْنني.. لكنّ «الدونز» يأكلون ويشربون الآن، ولن يكونوا منتبهين.»

ثم قلتُ لـ «لورنا»: «سأعودُ خلال ساعتين. احْزِمي أمتعَتَكِ كلَّها، وكوني بانتظاري. سأرجعُ وأُحَطِّمُ البابَ لآخذَكِ معي إلى بيتي.»

«لورنا» في بيتِنا

عُدْتُ إلى البيت بأسرعَ ما يُمكن، وأخبرتُ أُمِّي بالأمر، وطلبتُ منها أن تدفِّئَ المنزل. وأعطتني أختي «ليزي» مِعْطفاً لترتديَه «لورنا» اتقاءً من البرد. وانطلقتُ عَبْرَ الثلوج.

وصلتُ إلى بيت «لورنا» وناديتُها. ولم يُجِبْني أحد. ودخلتُ إلى البيت، فرأيتُ منظراً مُروِّعاً.

في وَسَطَ الغرفة، كانت «غويني» تتقابل مع أحد الرجال، بينما كان رجلٌ آخرُ يُحَاوِلُ إجبارَ «لورنا» على مغادرةِ المنزلِ بِصُحْبَتِهِ. وأمسكتُ بالرَّجُلِ الأَوَّلِ وألقيتُ به من النافذة. لقد كان «تشارلي دُون». وأمسكتُ بالآخر – وكان ابن اللورد «فيكهالس» – وحملتُه حتى الباب، ثم قذفتُه على الثلج خارجاً.

أخذتُ «لورنا» و«غويني» إلى خارج البيت

بسرعة، وركضنا في الثلج إلى أن وصلنا إلى البيت.

كانت أمي بانتظارِنا، وقبَّلتْ «لورنا» مُرَحِّبَةً بها. وجلسنا جميعاً، وكنتُ إلى جانب «لورنا»، وأمسكتُ بيدها مُعْظَمَ الوقت.

ما قيمةُ القِلادةِ؟

انحسرتِ الثلوجُ، وصار المشيُ في الشوارع مُمْكناً بلا صعوبة. وجاء «توم فاغوس» ليرى «آني».

أخبرتُه عن «لورنا»، وعن ذهابي إلى السير «إِنسور» ساعةَ احتضارِه. ثم أَرَيْتُهُ القِلادةَ قائلاً: «إِنّها مُجَرَّدُ قِلادَةٍ زجاجية لا قيمة لها.»

نظر إليها ثم قال بدهشة: «أتقولُ إنها زجاجيّة؟ إن هذه القِلادةَ مصنوعةٌ من أحسنِ اللآلىء التي شاهدتُها في حياتي. إنَّ سِعْرَهَا يُسَاوي أكثرَ من مزرعتِك كلِّها.»

ودخلتْ «لورنا» إلى حيث كُنَّا نجلس. وقال لها «توم فاغوس» مُمَازحاً: كم تريدين ثمناً لها؟ أتكفي خمسةُ جُنيهات؟»

قالت: «إنها قِلادةٌ لطيفة، ولكنَّ خمسةَ جنيهاتٍ

أكثرُ مما تستحق.»

وهنا قال «توم»، وهو يقصد أن يفاجئَها: «لو بيعت في «لندن» لَجَلَبَتْ لكِ مئاتِ الألوفِ من الجنيهات.»

وأعطت «لورنا» القِلادةَ لأُمي، وهي تقول لها بصوت حنون: «هل لَكِ يا عزيزتي أن تقبلي هذه الهديةَ المتواضعةَ مني؟ إنها لا تكفي لِردِّ جميلك نحوي!!»

ورفضتْ أُمي أن تأخذَها طبعاً، فلذلكَ أعطتها «لورنا» لي لأحتفظَ لها بها في مكانٍ أمين.

في الليلةِ التاليـة جاء «جيرمي ستيكلز» لزيارتِنا. أخْبَرَنا أنَّ ثلاثةً من «الدونز» حاولوا قتلَه، ولكنّهم أخطأوه وأصابوا أَحَد مرافقيه.

كنـتُ أَعْلَمُ عِلْمَ اليقينِ أنّ «الدونز» لن يَخْرُجُوا من واديهم، طَلَباً لِـ «لورنا»، طالما أن الماء الذي خَلَّفَتْهُ الثلوجُ بقي في الطرقات. ولكنني

كنتُ أَعْلَمُ أيضاً أنّهم سيأتونَ عندما يجفُّ الماء. وندمتُ على تَرك «توم فاغوس» يذهبُ، فقد كان رجلاً طيباً، ومُقَاتِلاً من الطِّرَاز الأوّل.

وحدثتُ «جيرمي» عن أمرِ قتالِ «الدونز»، فقال إن عليَّ أن أَجْمَعَ حولي أكبرَ عددٍ من الرجال المُسْتَعِدِّين لقتالهم. وكنتُ قبلَ ذلك قد أعددتُ مؤونـةً كبيرةً من الطعـامِ، تَحَسُّباً لأيِّ ظَرْفٍ طارىء.

في اليوم التالي، امتطيتُ جوادي باحثاً عن رجالٍ مُقَاتِلين أَضُمُّهُمْ إِلَيَّ. وجدتُ أربعةَ رجالٍ فقط، وطلبتُ منهم الحضورَ إلى المزرعةِ حالما يستطيعون ذلك. ووعدوني بإحضارِ اثنين آخرَيْن معهم لِيَقُوما بالحراسة.

رجعتُ إلى البيت بسرعة. وقد كنتُ محظوظاً لأني عُدْتُ في الوقت المناسب، فقد وجدتُ في البيت ما ينتظرني: كانت «لورنا» قد ذهبتْ إلى الحديقة لتقطفَ بعضَ الأزهار، وبينما هي في

الحديقة رأت شخصاً مُخْتَبِئاً بالقرب منها. لقد كان « كارفر دُون ».

تَسمَّرَتْ في مكانها لا تَقوَى حِراكاً، في حين اسْتَرسَلَ « كارفر » في الضَّحِك. ثم رفع بندقيَّته مُصَوِّباً إيّاها إلى قلب « لورنا ». ثم أخفضها باتجاه الأرضِ وأَطْلَقَ النارَ، فتناثر التُّرَابُ إلى وجه « لورنا » ووقعت أرضاً وهي تنفجرُ بالبكاء. واقتربَ منها « كارفر » وهو يقول: « لم أقْتُلْكِ هذه المرَّةَ لأنني لا أُريدُ قَتْلَكِ، كما أنني لا أَقْتُلُ أحداً وأنا غضبان... ولكنني أحذِّرُكِ، فإن لم تَحْضُري إلى وادي « الدونز » غداً، ومعكِ كلُّ ما أخذتِه من هناك، فَلَسَوْفَ أقتلك... وسأقتلُ « جون ريد » أيضاً. »

ثم استدار وانصرف.

وخزَنَّا طعاماً كثيراً للمؤونة، إذ كنا نتوقعُ مجيءَ « الدونز » في أيَّةِ ليلة. وبَرَّ المُقَاتِلون الأربعة والحارسان بوعدِهم، وحضروا إلينا.

المعركة ضد « الدونز »

في هذه الليلة بالذات، كُنَّا نتوقّع « الدونز ». طَلَبْنَا من النساء كُلِّهِنَّ أن يذهبنَ إلى النوم باستثناء « غويني »، وخادمتِنا « بيتي ».

وكان مطرٌ غزيرٌ قد سَقَطَ فَغَطَّتِ الماءُ أرضَ وادي « الدونز ». وظَنَنَّا، لذلك، أنهم لن يستطيعوا إحضارَ أكثرَ من ثَمَانيةِ رجالٍ أو عَشَرَةٍ لمحاربتنا. وكُنَّا نحنُ ثمانيةَ رجالٍ مُسَلَّحِينَ، مع أربعةٍ آخرينَ مُزَوَّدِينَ بالعِصِيِّ والسكاكينِ فحَسب.

كنتُ أتمنّى أن أواجِهَ « كارفر دُون »، وأقتلَه بيديّ. لقد كنتُ ضخمَ الجسم قَوِيًّا، إلى دَرَجَةِ أنني لم أكُنْ قد واجهتُ مَنْ هو أقوى مني. لكنّ « كارفر دُون » كان بضخامتي وبقوتي. وأتصوَّرُ أننا لو تقاتلنا لكانت المعركةُ بيننا حقيقية.

أما « غويني »، فكانت قد تسلَّقَتْ شجرةَ عالية

لتخبِرَنا عن قدوم « الدونز ».

وانتظرنا... وجاءت « غويني »، بعد فترةٍ، قائلةً: « لقد رأيتُ اثنين من « الدونز » قادمين باتجاهنا. » فأرسلتُها على الفور إلى « جيرمي ستيكلز » لتطلبَ منه المجيء مع رجالِه فوراً.

وبعد وقتٍ غيرِ طويلٍ، شاهدتُ « الدونز » آتين إلى فِناء البيت. وكان رجالُنا ينتظرون في ظلِّ البيت.

وتكلَّمَ « كارفر دُون » مُخاطِباً رجالَه: « ليذهب اثنانِ منكم فَيُشعِلا النارَ في القشِّ المَوْضُوعِ هناك. سَتُضِيءُ لنا النَّارُ المكَانَ فنتمكَّنُ من رؤيتِهم وقتلِهم. وإذا أصابَ أحدٌ منكم « لورنا » بمكروه، فإنني سأقتله فوراً. إن « لورنا » لي وحدي. »

كان باستطاعتي أنْ أُطْلِقَ النارَ على « كارفر » من مكاني. ولكنَّ يداي لم تَتَحَرَّكا من مكانِها، فأنا

لم أكن قد قتلتُ رَجُلاً قبل اليوم.

وتقدّم اثنانِ من « الدونز » لِيُشْعِلاَ القَشَّ، ومَرَّا من أمامي دون أن يرياني، لكثرةِ الدُّخَانِ المتصاعدِ من الأغصانِ التي أشعلوها لِيُوقِدُوا بها القَشَّ. وضربتُ واحداً منها على يده، فكسرتُ عظمَه، فصرخ متألِّماً وَوَقَعتْ من يده الأغصانُ التي كان يحملُها. وتوقَّفَ الآخرُ عن الحركة، فقذفتُه بالغصنِ المشتعلِ فأصابَ وجهَه. ثم قفز علي، فأمسكتُ به وحطمتُ كَتِفَه، ورميت به إلى جانب الرجل الآخر.

وعلتِ الضَّجَّةُ. لقد أطلقَ رجالُنا النارَ وأصابوا اثنين من « الدونز ». وتوقّف الآخرون عن القتال. وقطعتُ فِناءَ البيتِ حتى وصلتُ إلى « كارفر »، فأمسكتُه من ذقنه وقلت له: « أَتُسَمِّي نَفْسَكَ رَجُلاً؟ »

حاول أن يُصَوِّبَ بندقيَّته نَحْوِي، ولكنني كنتُ أسرعَ منه. وخاطبتُه بغضب: « انتبه يا هذا! لقد

أظهرتَ غباءكَ عندما أظهرتَ استخفافك بي. قد لا أكونُ ذكِيًّا جداً، ولكنني رجلٌ قويٌّ مِثْلُك. هيا انزلْ إلى الوحل!»

ودفعتُه أرضاً، فاتَّسَخَتْ ثيابُهُ من الوحل. ولما رأى رجال «كارفر» أن قائدَهم في الوَحْلِ، هربوا مُخَلِّفين جيادَهم وراءَهم، وكذلك تاركين رَجُلَيْن قتيلين من رجالهم.

وهكذا انتهتْ معركةُ فِناء المزرعة.

زيارة المستشار

انضمّ إلينا عددٌ كبيرٌ من الجنود. ولم نَعُدْ نخاف من هجوم «الدونز».

وفي إحدى الأُمْسِيَاتِ، كنتُ راجعاً إلى البيتِ بعد جولةٍ في المزرعة، فأَتَتْ إليَّ أختي «ليزي»، وقالت: «لا تذهبْ إلى غرفة أمي الآن. هناك شيءٌ أريد أن أحدِّثك به قبل ذلك.»

- «ما الأمْر؟ هل حدث شيءٌ لِـ «لورنا»؟!»

- «لا. ولكنَّ هناك رَجُلاً ضخماً ذا شعرٍ أبيضَ ولحيةٍ بيضاء، وأعتقدُ أنَّه من «الدونز».»

قلت فوراً: «إنه المُسْتَشَار.»

ودخلتُ إلى غرفة أمي أنا و«ليزي». كانت أمي واقفةً عند باب غرفتِها تتحدثُ إلى المستشار. وكان مادًّا يدَه نحو «لورنا»، وهو يقول لها: «يا

طفلتي الحبيبة، ما أجملَ منظرَك، تعالَيْ وقبّليني! »

أجابته « لورنا » بقولها: « إنَّ رائِحَةَ الدُّخَانِ تفوحُ منك، ولا رغبةَ عندي في تقبيلك. »

وتابع المستشارُ يقولُ: « هذا إذاً هو « جون ريد »، المقاتلُ العظيم. وهو يريد أن يتزوَّجَ « لورنا دُون ». أنا متأكّدٌ من أنكما سَتَسْعَدَان معاً، إذْ سيكونُ عندكما موضعٌ تَتَحدَّثان به وقتاً طويلاً دون مَلَلٍ: أعني ما فعل والدُكِ بوالدِه وما فعل والدُه بوالدِكِ. »

قالت « لورنا »: « لا أفهم ما تقول، فماذا تعني؟ »

أجابها بِخُبث: « أعني أن أباكِ قد قتل أباه، وأن أباه قد قتل أباكِ. »

كان ما قاله شيئاً فظيعاً.

وَقُلْتُ: « أنتَ تعرفُ أنَّ السير « إنسور دون » قال إنَّ علينا أن نَتَزَوَّجَ، وباركَ لنا هذا الزواج.

إننا متحابّان، وسنبقى كذلك. »

وقالت لورنا مُؤَيِّدَةً ما أقول: « أنتَ على حقٍّ. لا أعتقدُ أن المستشارَ قد قال الحقيقةَ فيما يتعلّق بوالدينا. نحنُ متحابّان، ولا شيءَ غير ذلكَ ذو قيمة. »

مكث المستشارُ تلك الليلةَ في بيتِنا. وفي الصباح، أَخْبَرَتْني « لورنا » بأنها سمعتْ شخصاً ما يتحرَّكُ قُرْبَ المنزل في الليل وكأنه يبحث عن شيء.

ولما خرجتْ « آني » إلى الغرفةِ التي كنا نستعملها لصنع الجبنةِ ومشتقاتِ الحليبِ الأُخرى، تبعها المستشار.

قال لها: « هل تعلمين أنكِ لو وضعتِ قِلادةً زجاجيّةً فوق الحليبِ، فإن الدَّسَمَ يعلو إلى الوجهِ بسرعةٍ كبيرة؟ »

- « لا، لم أسمع بذلك قط.. » قالت « آني ».

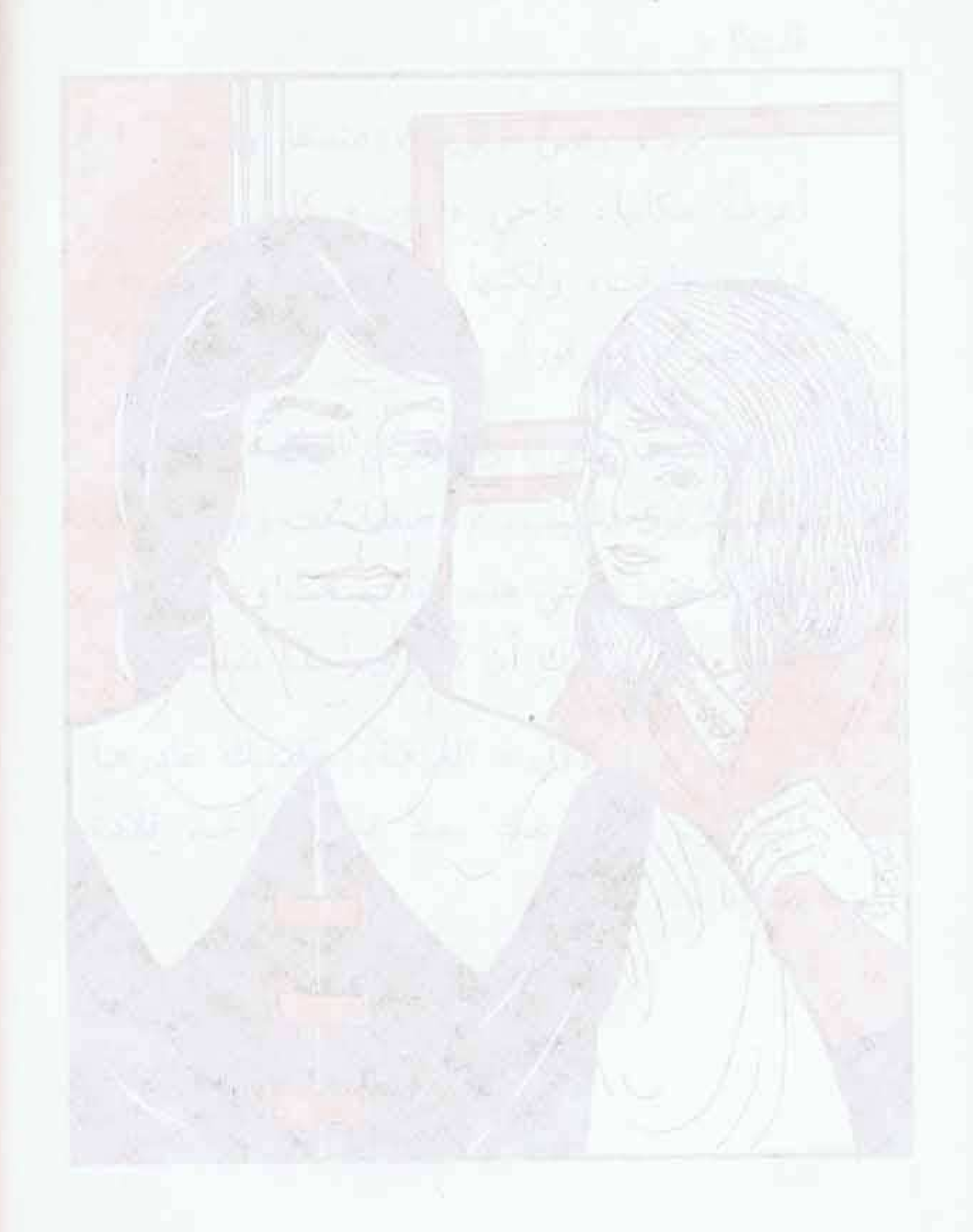


- « وهل عندكِ قِلادةٌ زجاجيّةٌ لأُبَرْهِنَ لَكِ ما قلت؟ »

- « لا ، ولكنّ « لورنا » عندها واحدة. أنا أعرفُ مكانها، فأخي « جون » كان يحتفظُ بها لبعضِ الوقت، ولكنَّها الآنَ في غرفةِ « لورنا » وسأُحْضِرُها لكَ فوراً. »

وركضتْ « آني » وأحضرتِ القِلادةَ للمستشار، فوضعها فوقَ الحليب، ثم وضعها تحت وعاء الحليب قائلاً لأُختي: « دعي هذه القلادةَ تحت وعاء الحليب لنهارٍ وليلةٍ، وإيّاكِ أن تُخْبِرِي أحداً بذلك! »

وغادرتْ « آني » الغرفةَ، وكذلك غادرها المستشار. لكنّه عاد بعدَ قليل وأَخذَ قِلادةَ « لورنا ».



السِّرُّ الذي عرفْتُه من « بنيتا »

عـاد « جيرمي ستيكلز » في الليلةِ نفسِها. وأخبرَني أنه أصبح على استعدادٍ لمقاتلةِ « الدونز » في أيّ وقت. وأخبرتُهُ أنا عن قلادة « لورنا ». ثم قال:

– « كنتُ في « واتْشِت » منذ أيام، وقابلتُ امرأةً إيطاليةً تُدعى « بنيتا ». كانت تعملُ خادمةً عند عائلةٍ إيطاليةٍ في إيطاليا، ثم صادقَ لوردٌ إنكليزيٌّ هذه العائلةَ، وتزوَّجَ الإبنةَ. وكان اللوردُ هذا، كثيراً ما يتحدَّثُ عن عائلته، ويقولُ إن أحدَ ذويه كان صاحبَ أملاكٍ كبيرةٍ فخسرها وصار مُتَمَرِّداً على القانون. وقُتل هذا اللورد أثناء رحلةٍ كان يقوم بها على جواده.

« وأخذتْ أرملةُ اللورد ابنتها الصغيرة التي رُزِقَتْ بها منه إلى انكلترةِ. وجاءت إلى هذه

المنطقةِ بالذاتِ، واستقلّتْ عَرَبَةً لِتُوصِلَها إلى بيتها الذي لا يبعد عنا كثيراً. وكان معها، إلى جانب ابنتها، خادِمَتُهَا « بنيتا »، التي أخبرتني بكل هذا. وكانتِ الأرملةُ قد سمعتْ بأخبار « الدونز »، ولكنها لم تكترثْ لأنها كانت تعتقدُ أنَّهم لا يَعْتَدون على النساء والأطفال.

« وسارت بهم العَرَبَـةُ حتى « واتْشِت »، ثم اقتربوا من البحر، وإذ بفرسانٍ يقتربون من العربة.. حاول السائقُ أن يُسرِعَ تَخَلُّصاً منهم، ولكن عَرَبَتَهُ غرزتْ في الوحل وتوقَّفتْ.

« ورأتِ الأرملةُ الفرسانَ يقتربون من العربة، واستطاعتْ أن تُميِّزَ وجوهَهم، وعَرَفَتْ واحداً منهم، فقالت لخادمتها « بنيتا » إنه أحدُ أقربائها.

« وكانت « بنيتا » تحمل علبةَ المجوهرات، وكان فيها قِلادةٌ ألماسية، فأخذَتْها من العلبة ووضعتْها حولَ عُنُقِ « لورنا ». وسقطتِ العربةُ في الماء، ولم تعرفْ « بنيتا » ما حدث تماماً. ولما

استيقظتْ وجدتْ أنَّ الفتاةَ قد أخذها « الدونز »، وأنَّ الأمَّ اقتيدتْ إلى « واتشِت »، ولم تَعِشْ بعد ذلكَ طويلاً.

« بَقِيَتْ « بنيتا » في « واتْشِت » ولم تَرْجعْ إلى قريتها لأن « الدونز » كانوا قد سرقوا كلَّ شيء. أما الأراضي التي كانت تملكها الأرملةُ، فقد وضعت الدولةُ يَدَها عليها بانتظارِ ظهورِ صاحبها. والمالكُ الشرعيُّ لهذه الأراضي إنما هو تلك الفتاةُ التي اختطفها « الدونز »... »

وهكذا أنهى « جيرمي » قصَّته.

وتذكرتُ أنا ذَلك اليومَ الذي كنتُ فيه عائداً من المدرسةِ فرأيتُ الخادمةَ الإيطاليةَ التي طلبتْ مني أن أملأَ كأسَ الماء لسيّدتها. وتذكرتُ أيضاً أننا مررنا بالعربة التي كان فيها السيدةُ والفتاةُ الصغيرة، كما تذكرتُ كيف أن « الدونز » مرّوا بنا وكان أحدُهم يحمل فتاةً صغيرة.

واستنتجتُ أن « لورنا » تَنْحَدِرُ من أُسرةِ

لوردات عريقةٍ، وأنّها صاحبةُ أملاكٍ واسعة. وقد لا أستطيع لذلكَ أنْ أتزوَّجَها.

وسَرَّني عند سَماعِ القصةِ أنني تأكدتُ من أن والدَ « لورنا » لم يَقْتُلْ والدي.

وبعد أيامٍ، سافرتُ إلى « واتشِت » لأرى « بنيتا ». وأَرَيْتُها الخاتَمَ القديمَ الذي أعطانا إيّاه السير « إنسور ». عرفتْ « بنيتا » الخاتَمَ، فقد كان لـ « لورنا ».

إذاً، لم تكن « لورنا » من « الدونز ». كان اسمُ عائلتِها الحقيقيُّ « دوغال ». واتّضحتْ لي خُطَّةُ « الدونز ». لقد كانوا يريدون تزويجَ « لورنا » لـ « كارفر » ليحصلوا بذلك على جميعِ ممتلكاتِها وأراضيها.

قتالٌ بالمَدافِعِ

من الممكن أنْ نُقَسِّمَ الرجال الذين كانوا يستعدّون لقتال « الدونز » ثلاثةَ أقسامٍ على النحو التالي:

(١) ستّون رَجُلاً من « سومِرْسِت »، يَرْتَدُون ثياباً صفراء.

(٢) ستّون رَجُلاً من « ديفون »، يرتدون ثياباً حمراء.

(٣) خمسة وثلاثون فارساً من فرسان الملك.

وكان معنا ثلاثةُ مدافعَ، وكنا قد وضعنا المدافعَ على ألواحٍ خشبيةٍ، وجعلنا الجيادَ تجرُّها.

وكانتِ الأوامرُ الصادِرَةُ تقضي ببقاء رجال « سومِرْسِت » على الهضابِ الشرقيةِ، رَيْثَمَا يُصْبِحُ رجالُ « ديفون » على استعدادٍ لأَخْذِ مواقعهم إلى الغرب. أما أنا و « جيرمي ستيكلز »، فقد ذهبنا

مع خمسةٍ وثلاثينَ رجلاً، مُزوَّدين بمِدفعٍ، لاقتحامِ بوّابة «الدونز» في حين يُطْلِقُ رجالُنا المنتشرون في الهضاب نارَ أسلحتهم إلى «الوادي»...

كانت هذه خطَّتَنا، ولكن التنفيذَ كان مختلفاً.

وَصَلْنا إلى بَوَّابة «الدونز»، وكان مِدفعُنا جاهزاً للإطلاق. وسمعْنا صوتَ إطلاقِ نارٍ من ناحِيَتَيْ الشرقِ والغرب. أَسْرَعْنا عندَ ذلك لاقتحامِ البوَّابةِ مُسْتَعِينينَ بالمِدْفع. ولما وصلناها لم نَرَ أحداً، ثم سَمِعْنَا طَلْقاً ناريًّا، وإذْ بحوالى عَشَرَةِ رجالٍ يرموننا بوابلٍ من الرصاص، فسقط عددٌ من رجالنا، ولكنّ الآخرين استمرُّوا في التقدّم.

كنتُ أنا و «جيرمي» في المُقدِّمَة، وكان المِدْفَعُ يُطْلَقُ من ورائنا. واستطعنا رؤيَةَ عددٍ من الرجال مختبئين بَيْنَ الأشجارِ الكثيفةِ، فتبعناهم لنقاتلهم قبل أن يُعِدُّوا بنادقهم. وفجأةً، سمعنا من خلفنا صرخةً عظيمةً من الرجال والجياد. فقد سقطتْ شجرةٌ كبيرة من أعلى الهضبة على الفرسان والمدفع،

ووقعتْ على رجلين اثنين فقُتِلا، كما تسبّبتْ في كسرِ ظهرِ أحد الجيادِ ورِجْلِ جوادٍ آخر.

أثارني هذا كثيراً! وركضتُ إلى مكانِ سقوطِ الشَّجَرَةِ، وتَبِعَني بعضُ الرجال، ومن بينهم «جيرمي». وأَطْلَقَ «الدونز» النارَ علينا وسقط بعضُ رجالنا، ولكنني تابعتُ مسيري. وكنتُ مُمْسِكاً بالمدفع، ولما وصلنا إلى البوابةِ دفعتُه إليها بقوة ولم أستطِع تخليصَه من الخشب المنكسر. وبحثتُ عمّن يساعدني، فلم أجد أحداً. وقلقتُ لعدم رؤية «جيرمي»، وأخذتُ أبحثُ عنه، فوجدته مُسْتَلْقياً على الأرض، وعلى وَجْهِهِ بعضُ الجروح. ساعَدْتُهُ على النُّهُوض، ثم حملتُه إلى مكانٍ أمين.

وجاء أحدُ الصِّبْيَةِ يقول لي: «لقد خسرنا المعركةَ، فقد تقاتل رجالُ «ديفون» مع رجالِ «سومِرْسِتْ». لقد انتصر «الدونز» علينا.»

وأسرعنا في صُنع عربةٍ من أغصانِ الأشجارِ، وضعنا عليها الجرحى، وجعلنا الجيادَ تَجُرُّها.

سأُخبِرُكُم الآنَ كيف تقاتَلَ رجالُ « ديفون » ورجال « سومِرْسِتْ » :كان رجال « ديفون » يُتِمُّون تَمَرْكُزَهم في مواضعهم، ولم يكونوا قد انتهوا من ذلك. وخافوا أن يبدأَ رجالُ « سومِرْسِتْ » بإطلاقِ النارِ على « الدونز » وإلْحَاقِ الهزيمةِ بهم، فيقولُ الناسُ إن رجالَ « سومِرْسِتْ » هم الذين ربحوا المعركةَ وحدهم. ولذلك، حالما انتهى رجال « ديفون » من أخذِ مراكزِهم، أطلقوا النارَ من مِدْفَعِهِم، دون التصويب إلى شيءٍ معيّن. وانطلقتِ القذيفةُ من المِدفعِ وسقطتْ على الجهةِ الشرقيةِ حيثُ كان رجالُ « سومِرْست »، فقُتِلَ رَجُلٌ منهم وجُرِحِ آخر.

غضب رجالُ « سومِرْسِت » من هذا أشدَّ الغضب. فوجهوا مِدفعهم صَوْبَ مواقع رجال « ديفون » وأطلقوا النار. وسَقط أربعةُ قتلى أو أكثر. وبدأتِ المعركةُ بين الفريقين. وفي هذه الأثناءِ، خرج « الدونز » من واديهم عبرَ الطريق

التي كانت « غويني » تسلكها. وهاجموا رجالَ « سومِرْسِت » فقتلوا منهم أربعةً، واستولَوْا على مدفعهم. وانسحب رجال « ديفون » من مواقعهم... وانتهت المعركةُ عند هذا.

رَحيلٌ قَسْرِيٌّ

خرجتُ من البيت لزيارة بعض الأصدقاء. وعندما عُدتُ لم أجِدْ « لورنا » تأتي لاستقبالي في ساحة البيت.

سألتُ أُمي عنها فلم تُجبني. وسألت أختي « ليزي » السؤالَ نفسه فقالت:

– « إن الآنسة « دوغال » – تعـــــــني « لورنا » – قد ذهبتْ إلى « لندن ». ولا أظنُّ أنها سترجعُ بعد اليوم. »

وقلتُ مردِّداً: « ذهبت « لورنا »! ذهبت « لورنا »... ولكنها لم تودِّعْني... »

قالت « ليزي »: « لقد بَكَتْ كثيراً قبلَ رحيلِها. وقد تركتْ لك رسالةً في غرفتها. »

وانطلقتُ إلى غرفة « لورنا » راكضاً، ووجدت

الرسالةَ التي تقول فيها:

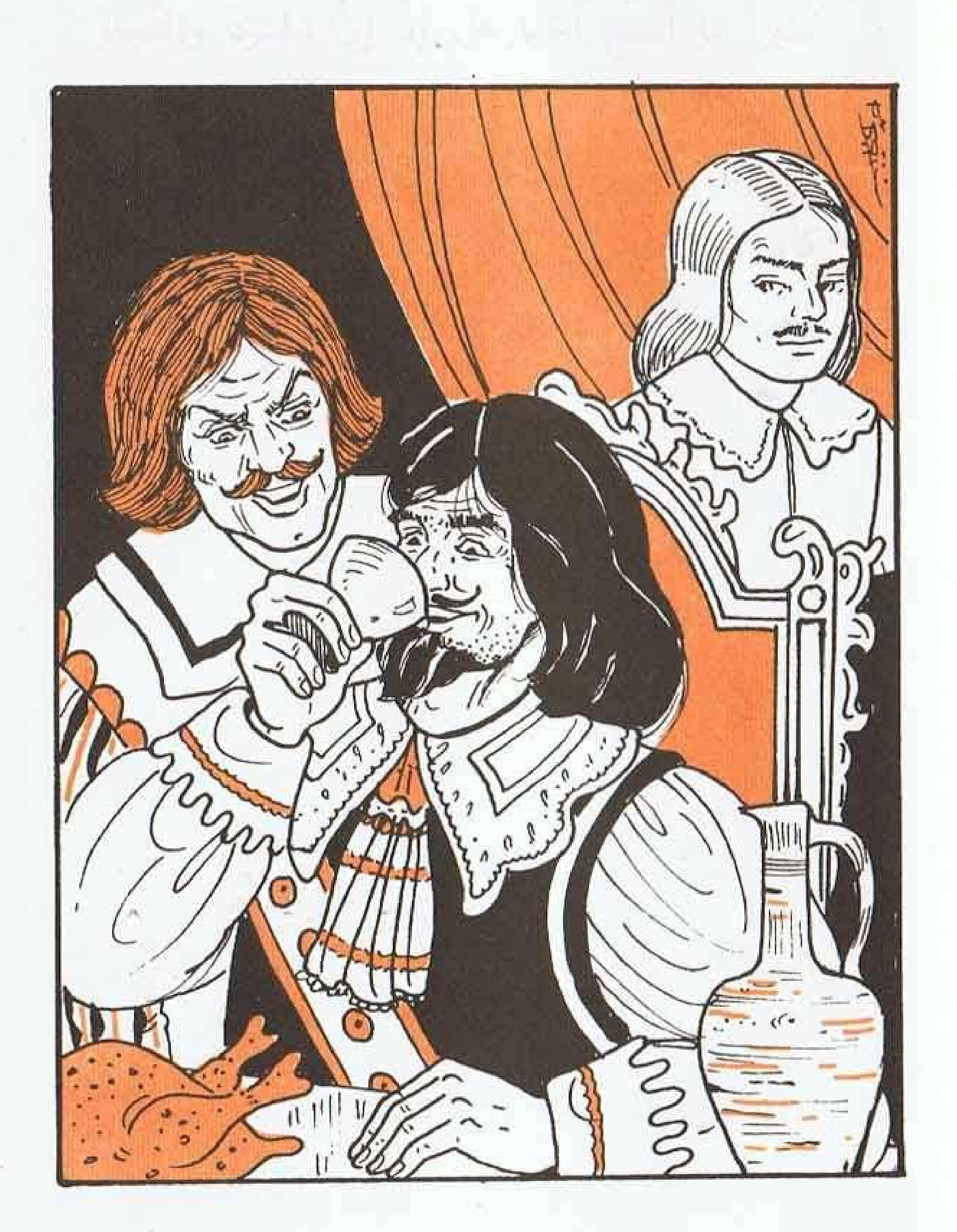
« عزيزي،

أرجو أن تفهمَ لماذا ذهبتُ دون أن أُوَدِّعك. إنَّ الرجالَ لن ينتظروا. وعمي، وهو لورد كبير، ينتظرني في « دانستر ». لقد أمر الملكُ أن يكون عمّي وَصِيًّا عليّ إلى أن أَبْلُغَ الحاديةَ والعشرين. إن هذا شيءٌ فيه كثيرٌ من القَسْوَة، فلو تُرِكَ الأمرُ لي لَبقيتُ بينكم. لكنهم أبلغوني أن عليّ أن أُنَفِّذَ رغبة الملك. ولن يَحُوْلَ بيني وبينك شيءٌ أبداً.

لورنا دوغال »

– « لقد انتهى كلُّ شيء. » قلت هذا بِأَسىً بعد أن قرأتُ الرسالة.

غيرَ أنَّ قلبي كان يقول لي: « سيكونُ كلُّ شيءٍ على ما يُرام. »



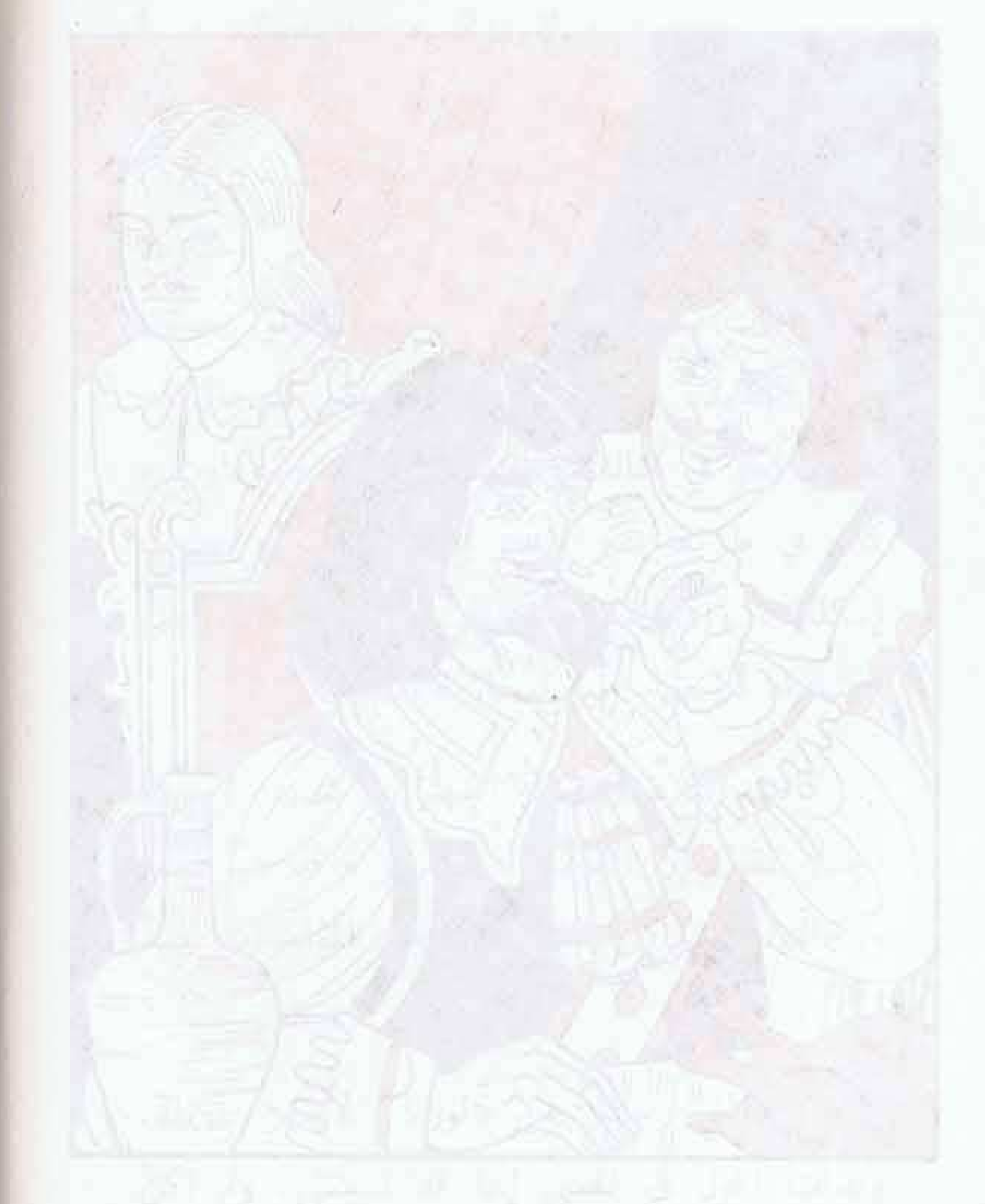
اضطرابٌ عامٌّ واضطرابٌ خاصٌّ

في شهرِ شباط من تلك السنة (أي سنة ١٨٦٥) وَصَلَنَا أنَّ الملكَ قد مات. وخفتُ من حدوث اضطراباتٍ لأنَّ كثيراً من الناسِ لم يكونوا يُحِبُّونَ الملكَ الجديدَ، « جيمس ». وكان بعضُ الرجالِ قد بدأوا فعلاً في قتالِه. وسمعنا أن دُوق « مونماوث » كان في طريقه عبرَ البحر من فرنسا إلى جنوب إنكلترة، وأن جميعَ مُزَارعي الجنوب كانوا على استعدادٍ للانضمام إليه لِمُحَاربة الملك.

كانت البلادُ في حالةِ اضطرابٍ شديد. وسَرَتْ أخبارٌ تقول إن القاضي « جيفريز » قد هيَّأ نفسَه ورجالَه لشنقِ كلِّ الذين يُدَبِّرون المؤامراتِ ضِدَّ الملك.

لم تَصِلْني رسائلُ من « لورنا » لأشهرٍ طويلة. وبدأتُ أقولُ في نفسي إنها قد نَسِيَتْني. ولم أكنْ

أعرفُ إنْ كان عليّ أن أكتبَ إليها أم لا . وكنتُ كثيراً ما أسمع أخبارَها، إذْ إنَّ الجنودَ والتُّجّارَ الذين كانوا يرجعون من « لندن » كانوا يقولون إنها ما تزال مشهورةً بجمالها، وأنّ كثيراً من اللوردات كانوا يتنافسون للزواج منها. ولمّا سمعتُ هذا شعرتُ بالحزن العميق، وبدا لي أنني قد فقدتُها إلى الأبد.



معركة بين رجال الدوق وجنود الملك

بعد أيّامٍ جاءَتْني «آني» وهي تبكي.

قالت: «يا «جون»، إن زوجي «توم فاغوس» قد ذهب برفقةِ عددٍ من رجال الدوق لمحاربةِ الملك. أرجوك أن تذهبَ للبحث عنه وإحضاره!»

– «أعِدُكِ بأنني سأبذلُ كلَّ جهدي لهذا الأمر.»

في اليوم التالي غادرتُ البلدةَ، بحثاً عن «توم فاغوس». وبعد جهدٍ كبيرٍ، وجدتُ جنودَ الدوق في «بريدج ووتر». والحقيقةُ أنه لا يجوز تسميتُهم «جنوداً»، لأنهم كانوا مُجَرَّدَ رجالٍ قرويين لم يتدرَّبوا على القتال وعلى استعمال البنادق أبداً.

كنتُ مُتْعَباً، فذهبتُ إلى أحد الفنادق. وفي الليلِ، أيقظَتْني صاحبةُ الفُندقِ وهي تقول: «لقد

بدأت المعركة!»

سمعتُ أصواتَ البنادق. وأسرعتُ في الخروج من البلدة عَبْرَ المُستنقعَات. وكان الضبابُ كثيفاً والرؤيةُ عسيرة.

ووصلتُ إلى بلدةٍ صغيرةٍ تُدعى «زيلاند». وكان رجالُ الملكِ هناك في الليل، لكنهم سرعانَ ما رحلوا عندما هاجمهم رجالُ الدوق.

واستعنتُ بِصَبِيٍّ يعرفُ المنطقةَ جيّداً، فأوصلني إلى المكان الذي كان فيه جنود الدوق.

كانت الساعةُ حوالى الرابعةِ صباحاً عندما خرجنا من منطقةِ المُسْتَنْقَعات. وأشرقتِ الشمسُ، وفي ضوئها رأينا منظراً مُرْعِباً: كان الرجالُ يهربون من المعركة راكضين، وقد غَطَّى الدَّمُ والغبارُ وجوهَهم. كان الخوفُ يتطايرُ من عيونِهم، وكانوا يركضون كالمجانين، لا هَمَّ لهم سوى النجاة. ورأيتُ كذلك عدداً من القتلى مُلْقَوْنَ على الأرض. كانوا، كلُّهم، من القرويينَ البُسَطاءِ الذين لم يَحْمِلُوا

بندقيةً في حياتِهم. لقد ماتوا بعد أن ذاقوا أليمَ العَذاب.

وكان الرجالُ يصرخون: « لقد انتهى القتال، إذْ نُصِبَتِ المدافعُ، ولم يبقَ سوى القتل. »

حاولتُ أن أُساعدَ بعضَ الجرحى، وإن كنتُ أبكي حُزْناً على حالتهم. وأعطيتُ الماء لرجلٍ جريحٍ كان قد شارفَ على الموت. وطلب مني أن أقولَ لزوجته شيئاً يتعلّق بمالٍ كان قد أخفاه تحت شجرة تفاح.

وأحسستُ بشيء يلمسني. فنظرتُ وإذا بـ « ويني »، جواد « توم ». نظر إليَّ الجوادُ وأدارَ رأسَه، وكأنه يريد أن يتكلَّمَ. ثم مشى بضعَ خطواتٍ وعاد ينظر إلي، فامتطيتُ حصاني وتبعته.

وَصَلْنا قربَ مكانِ المعركة. ورأيتُ رجالَ الدوق يقفون عاجزين قربَ نهرٍ لم يستطيعوا أن يعبروه. ولم يكونوا يحملون السلاحَ، ورغمَ ذلك

ينـادون رجالَ الملك قائلين: « تعالَوْا لقتالنا. »
وأطلقَ جنودُ الملكِ النارَ عليهم فأصابوا عدداً منهم. وكان الصراخُ والعويلُ يملآن المكان.

وتابع الجوادُ « ويني » سيره. وتوقّف أخيراً عند كوخٍ صغيرٍ، وأخذ يصهل وكأنه ينادي « توم ». وناديتُه أنا فلم ألقَ جواباً.. عندئذٍ دخلتُ الكوخ.

وجدتُ « توم فاغوس » داخلَ الكوخ. كانت يَدُه اليُمنى مجروحةً جرحاً كبيراً.. سقيتُه بعضَ الماء ففتح عينيه، ثم سألني عن « ويني »، فقلت له إنّه بخير.

ثم طلب مني أنْ أُساعدَه على امتطاء جواده، ففعلتُ. وانطلقَ الجوادُ، وكأنه يَعْلَمُ، إلى المكان الذي يقصدُه صاحبُه. واختفيا عن الأنظار سريعاً. أما أنا فمكثتُ في الكوخ لأنامَ بعضَ الوقت.

« جيرمي » يَرُدُّ لي جَميلي

استغرقَ نومي ثلاثَ ساعات. ولما استيقظتُ رأيتُ في الكوخِ عشرينَ جندياً.

قلتُ لهم: « هذا الكوخُ ليس لكم، فماذا تفعلون هنا؟ »

– « لقد جئنا لنأخذَكَ إلى المِشْنقة! »

أجَبْتُهم ببرود: « أتريدون أن تَعْرِفُوا طريقةَ الخُرُوجِ من هذا الكوخ؟.. ضعوا بنادِقكم جانباً، وتعالَوْا لقتالي واحداً تِلْوَ الآخَر. »

ضحك بعضهُم لهذه الفكرة، وظنَّ آخَرون أني لَنْ أستطيعَ قتالَ عشرينَ رجلاً. ووضعتُ بندقيّتي جانباً، وكذلك فعلوا.

هجمَ الرَّجُلُ الأوَّلُ عَلَيَّ بِطَيْشٍ، فأمسكتُ به من رقبتِه وقَذَفْتُهُ فَوْقَ رُؤوسِ أصحابِه. أما الرجلُ

الثاني، فكان يعرفُ بأصولِ القتال أكثرَ من الأوّل، لكنه كانَ قصيرَ القامةِ، ضعيفَ البُنْيَةِ، وسُرْعانَ ما قذفتُه كما فعلتُ بصاحبه من قبل. وخاف الآخرون من هذا وأخذوا يتهامسون. واسْتَفَدْتُ من هذه الفرصة، فركضتُ مُخْتَرِقاً مكانَ تجمُّعِهم ووصلتُ إلى جوادي. حاولوا إطلاقَ النار عَلَيَّ، ولكنني لم أُصَب.

وبينما أنا هاربٌ في طريقي، اعترضتني جماعةٌ أُخرى من الرجال... أنزلوني عن جوادي، وقال أحدُهم:

– « هذا سجينٌ آخر.. إنه ضخمُ الجثّة. »

وأصدر قائدُهم أمرَه قائلاً: « أُشنقوه حالاً على تلك الشجرة! »

أحاطوا رأسي بالحبالِ وجرّوني إلى جانبِ الشجرة، فرأيتُ فيها رجلينِ مُتَدَلِّيَيْنِ كان الرجالُ قد شنقوهما.

وجاء رجلٌ يمتطي جوادَه، فلما وصل إلى حيث كنا صاح في الرجال:

- « توقفوا! إنني أعرفُ هذا الرجلَ، وهو سجيني أنا. هَيَّا يا « جون ريد ».. اتبعني! »

لقد كان الصوتُ صوتَ « جيرمي ستيكلز ».

قال لي بعد ذلك: « لقد أَنْقَذْتَني من « الدونز » سابقاً. وقد رددتُ لك الآنَ جميلك. »

أَيْنَ « لورنا »؟!

تابعتُ أنا و « جيرمي ستيكلز » مسيرَنا. وقال لي في الطريق:

- « إذا حاولتَ أن تَهْرُبَ مني، فَسَوْفَ يأخذُ الرجالُ مزرعَتَكم ويأسرون أمَّك وأختيك. إنهم يعرفون اسمك. »

- « لن أهربَ منك، فأنا سجينك. وسوف أذهب معك إلى « لندن ».. »

- « سَتَمْثُلُ في « لندن » أمام المحكمة، فتكون محاكمتُك عادلة. »

وتابعنا رحلتَنا... كنتُ أفكرُ في « لورنا » وأتساءل إن كانت ما تزال تحبّني أم لا.

وعندما وصلتُ إلى « لندن »، سمعتُ أن « لورنا » ما تزال تعيشُ مع عمِّها اللورد

« براندير ». وسمعتُ أيضاً أنَّ الملكةَ كانت تُحِبُّ « لورنا » كثيراً، وأنها كانتا تذهبان معاً إلى الكنيسة.

وذهبتُ إلى الكنيسة وانتظرتُ وسط الحُشود لعلّي أرى « لورنا ».

وصلَ الملكُ والملكةُ، ووراءهما عددٌ كبيرٌ من اللوردات والعظماء.. وبعد ذلك جاءتِ النساءُ اللواتي يَقُمْنَ على خدمةِ الملكة. ورأيتُ « لورنا »، وأَطَلْتُ النظرَ إليها. ولَمَحَتْني بينما كنتُ أنظرُ إليها، وبادَلَتْنِي النظرَ، ورأيتُ في عينيها رِقَّةً وعطفاً كبيرين.

ثُمَّ دخلتُ إلى الكنيسة. وبينما أنا جالسٌ، جاءني رجلٌ يَحْمِلُ لي ورقةً من « لورنا، تطلب مني فيها أنْ أُوافِيَها في اليومِ التالي إلى مَنْزِلها.

ذهبتُ، في اليوم التالي، إلى مَنْزِلِ اللورد « براندير ». فَتَحَتِ البابَ « غويني كارفكس »،

وأَوْصَلَتْنِي إلى غرفةِ جلوسٍ كبيرة.. وبعدَ لَحَظات دخلت « لورنا » إلى الغرفة.

لم تَكُنْ قد وَصَلَتْنِي رسائلُ من « لورنا »، مع أنها كتبتْ لي كثيراً. والسببُ في ذلك أن « غويني » لم تكن تُوْصِلُ هذه الرسائلَ لي، لأنّها كانتْ ترغبُ في زواج « لورنا » من أحد اللوردات العِظام.

وقالت « لورنا »: « إني أَكْرَهُ الحياةَ في « لندن ». أشعُر أنَّ الرجالَ لا يحبونني إلا من أجلِ ممتلكاتي. وأنا لا أُفكِّرُ إلا فيك، وأُريدُكَ أن تأتيَ دائماً لزيارتي. »



مكافأة من الملك

في ليلةٍ من ليالي أيلول، كنتُ أمرُّ قُرْبَ مَنْزِلِ اللورد «براندير»، فإذا بي ألْمَحُ ثلاثةَ رجالٍ مُخْتَبِئِين قُرْبَ البيت.

وقلتُ في نفسي: «إن هؤلاءِ الرجالَ لصوصٌ بالتأكيد. وسوفَ أنتظر هنا لأرى ماذا يريدون أن يعملوا.»

واختبأتُ. وبعد قليل أُطْفِئَتْ أنوارُ المنزل.

سمعتُ أحَدَهُم ينادي رفاقه وهو على رأس شجرة قريبة. وتحرَّكَ الرجالُ مارّين بقربي، ولم يَرَوْني. ثم فُتِحَتْ نافذةٌ من نوافذ المنزل، فدخل منها الرجال. وما كان مني إلاّ أن تَبِعْتُهُم على مَهَل... كانت تتقدّمُهم خادمةٌ تَحْمِلُ مِصباحاً، ولمّا وصلوا إلى غرفة اللورد «براندير»، حطّموا البابَ ودخلوا.

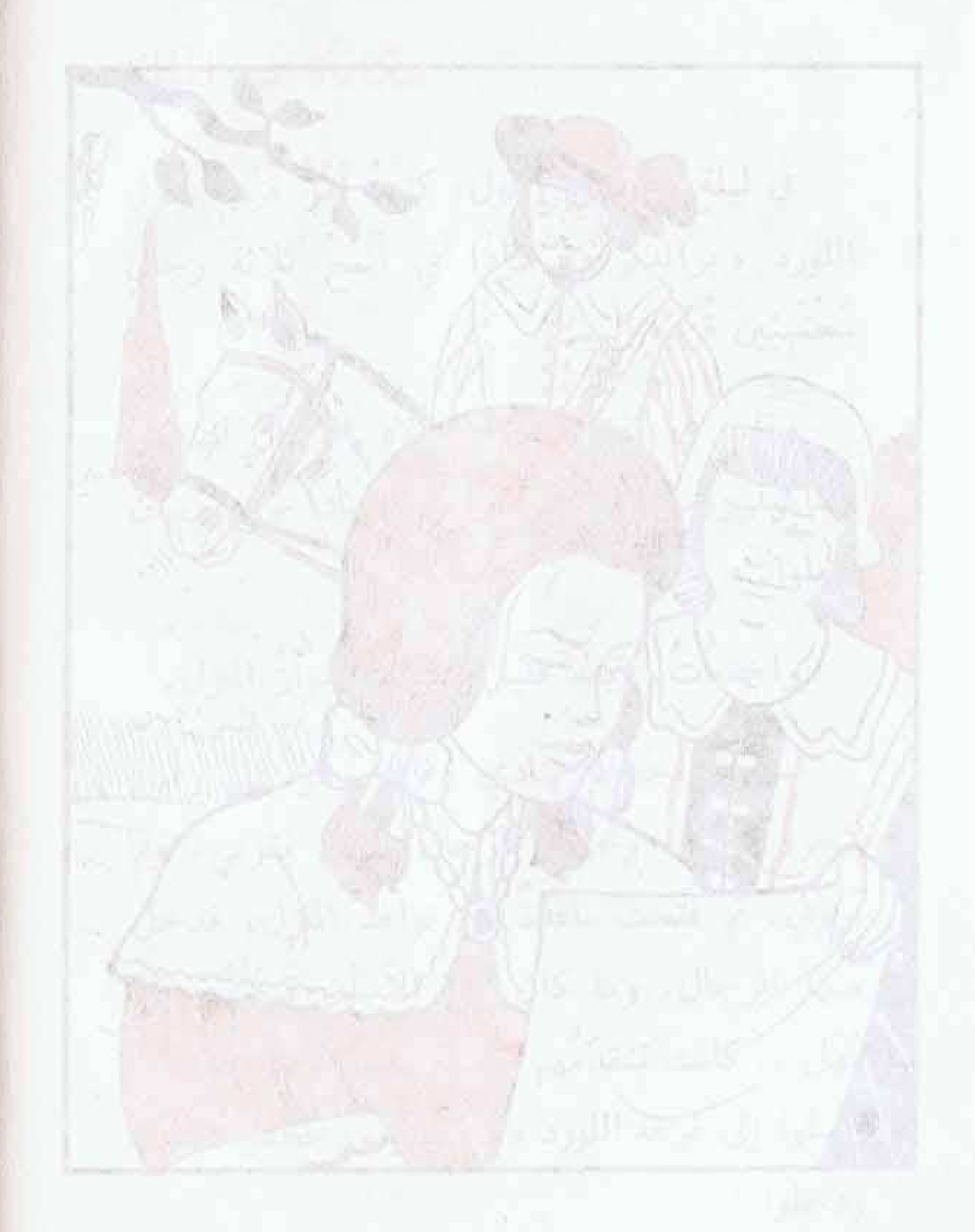
ودخلتُ أنا إلى الغُرفةِ بِحَذَر، فرأيتُ رَجُلاً يصوِّبُ بندقيَّته إلى اللورد «براندير»، في حِينَ كان الآخران يُحَاولان فتحَ صُندوقٍ كبير.

وقال الرجلُ الذي يحمل بندقيةً مخاطباً اللورد: «أَخْبِرْني أينَ مِفتاحُ هذا الصندوق... سأَعُدُّ حتى العَشَرةِ، ثُمَّ أُطْلِقُ النارَ عليك.»

وأجابه اللورد «براندير» بحزم: «لن أُخبرَك!»

وبدأ الرجل في العدّ: «واحد... اثنان... ثلاثة...»

واقْتَحَمْتُ الغرفةَ بسرعة، فضربتُ الرجلَ المُسَلَّحَ بعصاي، فوقع أرضاً في الحال. وهجم الآخران لقتالي. وكان أَحَدُهُم يَحْمِلُ بندقية. وعند ذلك حملتُ الرَّجُلَ الذي أَوْقَعْتُهُ على الأَرض، وأطلقَ الآخَرُ الرَّصَاصَ، فأصاب صديقَهُ الذي حَمَلْتُهُ عن الأرض لأحتميَ به، فمات. وبعد عراكٍ، تغلّبتُ على الرَّجُلَيْن وقَيَّدْتُهُما.



في الصباحِ أُحْضِرَ الرَّجلان لِيَمْثُلا أمامَ القاضي. لقد كانا من أَشَدِّ أعداءِ الملك. وكان القاضي فَرِحاً جِدًّا لاعتقالهما، وشكرني شكراً جزيلاً، وكتبَ رسالةً إلى الملك يُخْبِرُهُ عني مادِحاً. وذكر القاضي كذلك في رسالته كيف أنّي اعتقلتُ هذين الرجلين، وكيف قُتل الرجل الثالث.

وبعد ساعاتٍ، جاءني رجلٌ ومعه رسالةٌ تقولُ إن الملكَ يريدُ رؤيتي. ارتديتُ أحسنَ ثيابي، وخرجتُ مع الرجل في الحال.

دخلتُ القصرَ ورأيتُ الملكَةَ. ولما رَأَتْني قالتْ: «أَنت «جون ريد» إذاً. لقد حَدَّثَتْنا «لورنا» كثيراً عنك.»

وقال الملكُ بعد ذلك: «لقد قَدَّمْتَ لي خدمةً عظيمـةً يا «جون ريـد». والآن اركعْ على ركبتيك!»

وركعـتُ حـالاً، ولمسني الملـكُ وهو يقول:

«يُمْكِنُكَ أن تنهضَ الآن... لقد أعطيتُك لقب «سير»، فأنتَ الآنَ سيِّدٌ نبيل.. انهضْ يا سير «جون ريد»!!»

لَيْلٌ مُلْتَهِبٌ

بَعْدَ أَنْ أَصبحتُ حُرًّا طليقاً، وبعد أن كرَّمني الملكُ ومنحني لقبَ « سير »، صار بإمكاني العودةُ إلى بيتي. كنتُ قد حزنتُ لفراق « لورنا »، ولكنني كنتُ مُتَشَوِّقاً للعودةِ لرؤيةِ أُمي وأُخْتَيَّ، لا سيَّما وأنني كنتُ أُنفِقُ مالاً كثيراً في « لندن ».

وعند عودتي إلى المزرعة، أقام الأهالي حفلَةَ عشاءٍ كبيرةً تكريماً لي.

واسْتَمَرَّتِ الحياةُ كعادتها... واستمرّ « الدونز » في أعمالِ النهبِ والقتل. وقد دخلوا مرَّةً إلى منزلِ رجلٍ اسمُه « كيت بادكوك »، فقتلوا زوجتَه، وخطفوا ابنَه الصغيرَ، ثم أَضْرَمُوا النارَ بالبيت. وقد أغضبَ هذا الناسَ جميعاً، وعَقَدْنا اجتماعاً في البلدة بحثْنا خلالَه ما يَجِبُ أن نَفْعَلَهُ لِلتَّخَلُّصِ من « الدونز ». واسْتَقَرَّ الرأيُ على أنّ علينا قتال « الدونز » بأنفسنا.

كانت خُطّتنا كالتالي: نُرْسِلُ رَجُلاً إلى « الدونز » لِيُخْبِرَهُم بأنَّ عربةً مُحَمَّلَةً بالذَّهبِ سَتَمُرُّ على طريق الوادي في ليلةٍ معيّنة. ومن المُتَوَقَّع، لذلك، أن يَخْرُجَ « الدونز » لسرقةِ الذهب، فيكونَ رجالُنا في انتظارهم. وكذلك سيكون « جون فراي » منتظِراً بدءَ معركتِنا ليفتحَ النارَ من التلال باتجاه وادي « الدونز ».

وفي الليلةِ الموعودةِ، انتشر رجالُنا على الطريق. وانتظرْنا مرورَ العربةِ التي يَظُنُّ « الدونز » أنّها مُحَمَّلَةٌ ذَهَباً. وأعطانا « جون فراي » الإشارةَ بِطلقٍ ناريٍّ من بُنْدُقِيَّتِه.

وصِحتُ في الرِّجال: « هيا أيها الأبطال. احملوا بنادقكم، ونفِّذوا الخُطَّة. »

واقتحمنا الوادي، فأشعلْنا النارَ في منزل « كارفر دُون ». ورأيتُ صَبِيًّا عند البيت – وكان ابنَ « كارفر » – فأنقذْتُهُ. ثُمَّ أخرَجْنا النساءَ والأطفالَ من المنازل، وأشعلْنا فيها النار.

وصَرَخَتِ النساءُ: « إنَّ بلدةَ « الدونز » تَحْتَرِقُ... إنها النهاية!! »

وتوهّج الوادي بسبب النار. وكما تَوَقَّعْنا، أخذ رجالُ « الدونز » يركضون من البوَّابة إلى الوادي، مُخَلِّفِين وراءهم عدداً من القتلى. وكان يقودُهم « تشارلي دُون ». ورأيناهم بوضوح في ضوء النار، وأَطْلَقَ رجالي النارَ عليهم، ورأيتُ « كيت بادكوك » يقتل « تشارلي دُون » لأن « تشارلي » هو الذي قتل زوجتَه وخطف ولدَه.

أما أنا، فكنتُ أَبْحَثُ عن « كارفر »، ولكني لَمْ أَجِدْه..

لن أُخبِرَكُم عن فظاعة القتل في تلك الليلة. يكفي أنْ أقولَ إنه لم يَبْقَ حَيًّا من « الدونز » في الصباح إلا المستشارُ و « كارفر ». والْتَهَمَتِ النارُ كلَّ بيتٍ في الوادي، فَحَوَّلَتْه إلى أنقاضٍ سوداء.

وسأُخْبِرُكُم بما حلّ بباقي رجال « الدونز »: كان « كارفر » يَقُودُ الرجالَ الذين كمنوا للعربة.

وكان « سيمون » اسمَ الرجلِ الذي أرسلناه إلى « الدونز » لِيُخْبِرَهم عن العربة، وقد ذهب معهم في حَمْلَتِهِم، فاقتادهم إلى منزلٍ مهجورٍ، حيث انتظروا وُصولَ العربة. وغافل « سيمون » بعضَهم فصبَّ الماء في بنادقهم.

ووصل رجالُنا وصَوَّبوا بنادِقَهم إلى صُدُور رجال « الدونز » كُلِّهِم. وحاول بعضُ رجال « الدونز » استعمالَ البنادق، لكنها لم تكن صالِحَةً للعمل بعدَ أن صَبَّ فيها « سيمون » الماء. ورغْمَ ذلك حاربوا رجالَنا بشجاعةٍ، فَقُتِلوا جميعاً باستثناء « كارفر » الذي أَسْرَعَ إلى امتطاءِ جوادِهِ هارباً.

عِراكٌ يومَ الزّفاف

عادت « لورنا » من « لندن ». وكان كلُّ شيءٍ قد أُعِدَّ لحفلةِ زفافِنا.

وجاء إلى الكنيسةِ عددٌ كبيرٌ جدًّا من الناس.

ومشيتُ إلى الكنيسة حيث كانت « لورنا » في انتظاري، وهي ترتدي ثوبَ زفافِها الأبيضَ الطويل.

وضعتُ خاتَمَ الزواجِ في إصبعها، وكانت تنظرُ إليَّ بِرِقَّة. وفجأةً، سَمِعْنا صوتَ رصاص.. ووقعتْ « لورنا » أرضاً.. ولطَّخَ الدَّمُ ثوبَ زفافِها والحجارةَ البيضاءَ قُرْبَ مدخلِ الكنيسة. وطلبتُ من أُمي أن تبقى إلى جانبها، وأسرعتُ لأرى مَنْ فَعَلَ هذا. وكنت أعرف الجواب: كان « كارفر دُون ».

لم أكُنْ أحمِلُ بندقيّة. ولكنني كنتُ على استعدادٍ لقتل « كارفر » بيديّ. فقفزتُ راكباً

جوادي وتَبِعْتُه. ولمحتُه على بُعْدِ رُبْعِ ميلٍ أمامي. وقلتُ في نفسي: « إما حياتي، وإما حياته. » وكان يحملُ السلاحَ طبعاً.

تبعتُه بأقصى سرعة، ورأيتُ أنّ ابنه « إنسي » كان معه. ووصلْنا إلى المستنقعات، فتوقّفَ والتفتَ إلى الوراء، فرآني أتبعُه. وحاول أن يُسْرِعَ، لكنَّ جوادَه كان مُجْهَداً.

وأخذتُ غُصْناً قَوِيًّا من إحدى الأشجار، فَقَدْ أحتاجه في اللحظاتِ الحَرِجَةِ التالية.

ولما أيقن « كارفر » أن جوادَه لم يَعُدْ يَقْدِرُ على الجري، استدار وأَطْلَقَ عَلَيَّ النارَ، فأصابني، ولكنّني تابعتُ سَيْرِي. ولم أُفكِّرْ إلاّ في عَدُوّي الذي أمامي، غافلاً عن الخطر الذي أنا فيه. ولما اقتربتُ منه، ضربتُ جوادَه بغُصنِ الشَّجَرَةِ ضربةً قويةً، فسقط الجوادُ ومعه « كارفر »، ولم يستطعْ أن يقومَ بسرعة.

ونزلتُ عن جوادي، فأسرعَ « إنسي » الصغيرُ

نحوي، وأخذ ينظر إليَّ والدموعُ في عينيه.

فقلتُ لـه: «عزيزي «إنسي»، اذهبْ إلى التلال، وأَحضِرْ لي باقةً من الزهور!!» وانصرف بسرعة مُلَبِّياً.

ونهض «كارفر»، وأخذ يبحثُ عن بندقيته. ولكنني كنتُ قد رميتُها بعيداً.. لقد صار مُضْطَرًّا لقتالي بالأيدي.

كانت تَفْصلُ بيننا بقعةٌ مُغَطَّاةٌ بالحشائش. تَقَدَّمَ مني، وأمسكني بيديه القويّتين، فأحسستُ أنَّ إحدى عظامِ ظهري انكسرتْ.. وأمسكتُ به أنا من رَقَبَتِه، فحاول التَّخَلُّصَ من قبضتي، فلم يُفْلِحْ. وشددتُ قبضتي عليه، فَفَقَدَ مُقَاوَمَتَهُ، ورميته بعيداً عني قائلاً: «لن أُؤْذيكَ أكثرَ مِمَّا فعلت.. لقد انتصرتُ عليك، وبإمكاني أنْ أصفحَ عنك الآن.»

لكنّ رِجْلَيْ «كارفر» كانتا قد غاصتا في الرَّمْلِ المُتَحَرِّك. وأخذ يَنْحَدِرُ باستمرار، وانقلب على

ظهره. ومدَّ يديه إلى أعلى، فحاولتُ أن أُساعدَه، لكنني ما استطعت. ورُوَيْداً رُوَيْداً، ابتلعتْهُ الرمالُ، وغاب عن الأنظار إلى الأبد.

أَجْنِحَةُ الحُبِّ والسَّعادةِ تُرَفْرِف

حملتُ ابنَ «كارفر»، «إنسي»، بين يديّ وامتطيتُ معه صهوةَ جوادي.

عُدْتُ في طريقي إلى البيت وكأنني في حُلُم. وما إن وصلتُ إلى بابِ المنزل، حتى وقعتُ عن جوادي بسبب الكسرِ الذي أُصِبْتُ به. وهُرِعَتْ أُمي لمساعدتي.

وقلتُ لأمّي بِحُزْن: «لقد قتلتُه.. قتلتُه انتقاماً لـ «لورنا» التي قتلها. إن «لورنا» لي وحدي، حتّى في موتها.»

وأجابتْني أُمي: «إن «لورنا» لم تَمُتْ. ولكنّك لن تستطيعَ أن تراها الآنَ لأنّك مُلطَّخٌ بالدماء.. اذهبْ إلى غرفتك لترتاح.»

ظلّت «لورنا» لِعِدَّةِ أيامٍ مُعلَّقَةً بين الموت

والحياة. ثم أخذتْ إرادةُ الحياة تنتصر، وتحسَّنتْ حالُها.

وبقيتُ في سريري مريضاً مُدَّةً غيرَ قصيرة. ولا أنسى اليومَ الذي جاءت فيه أُختي «آني» إلى غرفتي، وأدخلتْ «لورنا» إليها ثم انصرفت. اقتربتْ «لورنا» مني، ووضعتْ رأسَها على كَتِفِي، وأَحسستُ بالحياةِ تَسْرِي في عُرُوقي من جديد.

وهكذا تنتهي قصتي.

ولكنْ، هل انتهت حَقًّا؟! إن روعةَ «لورنا» وجمالَها كانا يزدادان عاماً بعدَ عام، وكذلك كان حُبُّنا يكبرُ وسعادتُنا تنمو.

أَهُناكَ شيءٌ آخرُ تُرِيدُونَ أنْ تَعْرِفُوه؟

الفهرس

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات



دار العلم للملايين